قوة اللفظ
لقوة المعني
دلالاته البلاغية في السياق القرآني

إعداد دكتور

رمضان محمد عبد الغفار البدوى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

جامعة الأزهر

المقدمة

الحمد لله القائل : (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا)[١].

صلاة وسلاما على خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وسيد الأولين والآخرين، محمد بن عبد الله وعلى آله والتابعين بإحسان. وبعد..

فإننى مولع بالنظر والتأمل فى تراث أعلام هذه الأمة، إذ إننى أحسب أن الكثير من هذا التراث لم يزل بكرا لما تفض بكارته بعد، فإنك حيث طوَّفت فى كتبهم وجدت عبارات دالة وهادية إلى أبواب من العلم تُستفتح فتُفتح، عبارات كالشموع تدعو كل طالب علم مجد من أبناء هذه الأمة إلى تكسيرها وتكثيرها لنحول كل شمعة منها إلى شموع نستضئ بها دروبا من العلم طالما أظلمت، أو هى خيوط ممتدة تتوارى تحت أكوام تراب الجهالة والغفلة والتيه عن تراثنا الخالد، من استل طرفا منها طاع له وامتد معه كأنه لا آخر له.

قلت هذا لأن الذى هدانى إلى هذه الدراسة عبارة رشيدة من هذه العبارات للعلامة ابن جنى ـ رحمة الله عليه ـ جعلها عنوانا لباب من العلم– فى حاجة إلى أن نميط عنه لثام النسيان– يهدى به إلى العلاقة بين صياغة بعض الألفاظ ودلالتها البلاغية، أو بين نوع من علاقة اللفظ بالمعنى، والعبارة هي :

(قوة اللفظ لقوة المعنى)

---

(١) الرعد : ٣١.

جملة ما كتبه من صفحات تحت هذا العنوان لا يتجاوز أصابع اليد الوحدة، لكنه

دل بها على كنز من العلم والمعرفة من كشفه هداه إلى كنوز من الدرس البلاغى فى النصوص العربية شعرها ونثرها لا يُسبر غوره ولا تنتهى عجائبه.

لست إذن أدعي السبق إلى الدلالة على هذا الطريق، بل هدانى إليه العلامة ابن جنى وهو أحد الأعلام الذين فى تتبع آثارهم سبق لا يلحق وشرف لا يدرك.

وقد ذكر العلامة ابن جنى تحت هذا العنوان كلاما غاية فى الإبداع، دل به على المراد من هذا الباب دلالة دقيقة، وعدد أمثلة من القرآن وغيره كاشفا عن السر البلاغى وراء قوة بعض الكلمات لقوة معانيها المعبرة عنها، وربط ذلك بالسياق الذى جاءت فيه.

وأرجع هذه القوة إلى أمور ودواع تعرض للكلمة فتخرجها عن أصلها من الخفة إلى القوة : كتكرير أو تضعيف بعض حروفها، أو بتاء الافتعال. وكأنه بذلك هدى إلى الطريق ووضع منهجه وخطة السير فيه، فجزاه الله عن طلاب العلم كل مثوبة وخير.

وسنقف مع ما ذكره ابن جنى فى مواضعه من الدراسة، ونكتفى هنا بالإشارة إلى فضله وشرف سبقه إلى هذا الباب.

ولما كان كتاب الله باقيا لهذه الأمة بحرا مديدا وعطاء جديدا وإعجازا فريدا، فقد أردت ـ مستعينا بالله ـ أن أطبق ما دل إليه ابن جني على كتاب الله المعجز مستلهما عبارته السابقة التى جعلها عنوانا لهذا الباب، وجعلت هذه الدراسة تحت عنوان :

(قوة اللفظ لقوة المعنى، دلالاته البلاغية فى السياق القرآني)

وكنت فى كل رحلة من رحلات التأمل فى كتاب الله ـ قبل أن اقرأ عبارة ابن جني ـ شغوفاً بهذا النمط الآسر، يستحوذ على جنبات نفسى ويأخذ بمجامع قلبى، غير أننى لا أجد على لسانى عنوانا استفتح به باب الدرس فيه.

نعم.. إن ذلكم النمط يسترعى النظر، ويستدعى الوقوف، ويدعو كل محب لكتاب الله إلى البحث والدرس، ذلك ما نراه فى قوة البنية اللغوية لبعض كلمات القرآن الكريم، وأعنى بقوة البنية ما يعرض لبعض الكلمات من وصف يجعلها قوية البناء، أو ثقيلة على اللسان تقرع الآذان بشدة جرسها وقوة بنائها.

فقد تقوى الكلمة بسبب تكرار بعض الحروف، أو تضعيفها، أو بتا الافتعال، أو بدخول لام القسم ونون التوكيد، أو لطولها بكثرة الحروف وتتابعها على نحو يجعلها قوية البناء ثقيلة على اللسان. وهذا الأخير وقف معه البلاغيون فى حديثهم عن الفصاحة، فجعلوا ثقل الكلمة الناشئ عن تجاور الحروف ذات المخارج المتباعدة، أو المتقاربة، والصفات المتباينة أو المتجانسة مما يؤدى بدوره إلى تنافر حروفها ـ جعلوا ذلك ـ عيبا من العيوب التى تخل بفصاحتها.

يقول العلامة سعد الدين التفتاذانى : (والضابط ههنا أن كل ما يعده الذوق الصحيح ثقيلا متعسر النطق به فهو متنافر، سواء كان من قرب المخارج، أو بعدها، أو غير ذلك) [1].

وفى النفس شئ من جعل الثقل الناشئ من تنافر حروف الكلمة سببا فى الإخلال بفصاحتها، إذ الثقل لا يكون ممجوجا فى كل مقام، وعلى كل حال، بل إن النصوص الفصيحة شهدت بأن ثقل الكلمة وشدتها وقوتها ضرب من فصاحتها وبلاغتها، حيث تعبر عن معنى قوى شديد لا ينهض بأدائه الكلمة السهلة الرقيقة الخفيفة على اللسان، وهذا ما نؤكده تطبيقا على كتاب الله المعجز في مباحث هذه الدراسة .

وإذا كان البلاغيون قرروا : أن كل بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغا فإن وجود غير الفصيح فى الكلام البليغ يطعن فى بلاغته، وإذا كان ذلك كلك فلقائل أن يقول : إن فى القرآن كلمات غير فصيحة، وينبنى عليه أن تكون العبارات التى فيها الكلمات غير بليغة، وهذا مما يستعاذ بالله منه أن يقال ، أو يخطر ببال.

وأرى أن نسقط القول بأن التنافر والثقل عيب من العيوب المخلة بفصاحة الكلمة. ونترك الخفة والثقل لمتطلبات المعنى فحيث يقوى المعنى ويثقل توظف الكلمة الثقيلة القوية، والعكس صحيح ومتى أحسن المتكلم هذا الاستخدام أصاب كبد الفصاحة والبلاغة.

يقول الدكتور أبو موسى: (وينبغى أن يلاحظ أن استعمال هذا المقياس يحتاج إلى وعي وذوق، لأن هناك كلمات ثقيلة على اللسان، ولكن ثقلها من أهم

([1]) شرح السعد، ضمن شروح التلخيص : ٨٠/١.

مظاهر فصاحتها، من حيث إن هذا الثقل يصور معناها بحق، انظر كلمة (اثَّاقلتم) فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الارض) [١]. نجد فيها قدرا من الثقل الفصيح، لأنه يصف تقاعسهم وتثاقلهم، وخلودهم إلى الأرض، واستشعار مشقة الجهاد وعزوف أرواحهم عنه، وقد دعوا إليه فى عام العسرة،فكان منهم ما وصفت الآية، ولذلك جاء التهديد البالغ ليواجه تخاذل أرواحهم، فقال سبحانه : (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا) [٢]

ـ واختلال هذا الميزان فى الحكم على الكلمة بعدم الفصاحة لثقلها أوقف بعض البلاغيين عنده كذلك.

فهذا العلامة السعد التفتازانى يعرض رأي من قال : إن وجود غير الفصيح فى القرآن لا يخرجه من الفصاحة لأن الكلام الطويل لا تخرجه كلمة غير فصيحة عن حد الفصاحة قال : (وقيل إن قرب المخارج سبب للثقل المخل بالفصاحة، وأن فى قوله تعالى : (ألم أعهد إليكم) ثقلا قريبا من المتناهى فيخل بفصاحة الكلمة لكن الكلام الطويل المشتمل على كلمة غير فصيحة لا يخرج عن الفصاحة،.... وفيه نظر لأن فصاحة الكلمات مأخوذة فى تعريف فصاحة الكلام من غير تفرقة بين طويل وقصير..... فمجرد اشتمال القرآن على كلام غير فصيح بل على كلمة غير فصيحة مما يقود إلى نسبة الجهل أو العجز إلى الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا) [٣].

---

(١) التوبة : ٣٨.

(٢) خصائص التراكيب : ٣٣. والآية : ٣٩ ، التوبة.

(٣) شرح السعد ضمن الشروح، وينظر مواهب الفتاح للمغربى : ٨١/١-٨٣. (٣) حاشية الدسوقي:٨٣/١.

وقد فصّل العلامة الدسوقى بطلان القول بذلك فى تعليقه على كلام السعد ومن كلامه : (قلت المقصود من القرآن إنما هو الاعجاز بكمال بلاغته وفصاحته لأجل تصديق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووجود كلمة غير فصيحة فيه موجب لعدم فصاحة ما اشتمل عليه من المقدار المعجز بالاتفاق، وعدم فصاحة ذلك القدر موجب لعدم بلاغته فلا يكون معجزاً)(٣) وليس هذا موضوع الكلام فى هذه القضية فيستقصى، ولكننى ذكرت طرفا منه لأنهم عدوا الثقل عيبا يفقد الكلمة فصاحتها، وهو فيما نحن فيه من ضروب فصاحتها وبلاغتها فى سياقها.

وحقيق بنا أن نشير هنا إلى أن دراسة قوة اللفظ لقوة المعنى يستدعى دراسة أخرى للأصل الذى تفرع عنه، وهو خفة الكلمة لخفة معناها، أو ضعفها لضعف معناها، ولكن لما كانت الخفة هى الأصل صرفنا النظر إلى الخارج عن هذا الأصل.

وهذا النوع من الدرس البلاغى وثيق الصلة بدراسة الأصوات قوة وضعفا خفة وثقلا وجريانها على المعانى التى يقتضيها المقام غير أن دراسة الأصوات باب أرحب من هذا الباب، لأنه يتسع للأصوات فى الكلام كله ومدى موافقة ذلك لموضوع السورة مثلا وقضيتها، وسر شيوع حرف أو أكثر فى ثنايا كلماتها، وعلاقة ذلك بالنغم العام والموسيقى الداخلية للسورة كما يتسع للعلاقة بين الصوت والمعنى الذى أسماه ابن جني :

(إمساس الألفاظ أشباه المعانى)

وقد تعرضنا لجانب من ذلك فى دراسة أخرى.

نعم.. هو باب رحب يحتاج إلى طول صبر وإدمان مصابرة على استفتاحه ليفتح.

أما دراستنا هنا فمنصبه على بعض الألفاظ التى جاءت قوية فى مبناها لقوة معناه، والدلالات البلاغية التى يمدنا به هذا النمط فى السياق القرآني.

وقد بدا لى من واقع ما ذكره العلامة ابن جني وباستقراء آي القرآن الكريم أن القوة اللفظية الدالة على القوة المعنوية مردها إلى أسباب عدة، فجعلت هذه الأسباب مباحث هذه الدراسة، وهى بعد **المقدمة** التى أبنت من خلالها أهمية هذا الموضوع والدافع إلى تحبير هذه الصفحات، وخطة السير ومنهج الدراسة، على النحو التالى :

المبحث الأول : القوة بالتكرار.

المبحث الثانى : القوة بالتضعيف.

المبحث الثالث : القوة بلام القسم ونون التوكيد.

المبحث الرابع : القوة بطول الكلمة وتوالى حروفها.

ثم زيّلت الدراسة بـ **خاتمة** تلاها **فهرسان** : أحدهما للموضوعات ، والآخر لأهم المصادر والمراجع .

هذا.. ولا أدعى الإحاطة والاستقصاء فى هذه الدراسة إذ إن سياقها لا يتسع لذلك، وإلا لحبرت فيها صفحات تربو على رسالة علمية كبيرة، إذ إن هناك أسباباً للقوة اللفظية الدالة على القوة المعنوية غير ما ذكرت، كالقوة الناشئة عن المخرج وإن كانت الكلمات قصيرة قليلة الحروف، كما فى : (ضيزى) فى قوله تعالى : (تلك إذن قسمة ضيزى)

[1] و (عتل) فى قوله تعالى : (عتل بعد ذلك زنيم) [2] و (أعهد) فى قوله تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان) [3].... الخ.

وكالقوة الناشئة عن فك الإدغام، كما فى : (يستعفف، يشاقق، يرتدد) إلى غير ذلك مما يكشف عنه النظر والتأمل فى الكتاب المعجز.

وحسبى هنا أن أهدى إلى الطريق، وأدل على النهج عن طريق أهم الأسباب، وأهم الشواهد الدالة على ذلك. وقد حاولت جهدى أن أكشف عن الدلالة البلاغية لقوة اللفظ والمعنى لتلك الكلمات التى تناولتها من واقع النظر فى سياقاتها، وكيف اقتضى المقام هذه القوة، وكيف أن غيرها من الكلمات الرقيقة الخفيفة الهامسة لا يقوم مقامها. ذلك من خلال تتبع المعنى اللغوي للفظ، وتتبع كلام المفسرين ومحاورتهم فى ذلك.

قلت : إن النظر فى قوة اللفظ لقوة معناه يكون من خلال تأمل سياقه، لأن الدلالة البلاغية للكلمة لا تنفك عن السياق الذى جاءت فيه، حيث إن قوتها مرتبطة بالمعنى الذى جاءت لتأديته مع أخواتها، لا ما تؤديه منزوعة من سياقها، مبتورة عن شقائقها، مما يجعل قوتها وشدتها وثقلها من أبرز مظاهر بلاغتها وفصاحتها.

فإن كنت دللت على الطريق وأرشد إلى النهج وهديت إلى النبع ليتتبع فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإلا فهو النقص الذى فطر الله عليه البشر.

---

(1) النجم : ٢٢.

(2) القلم : ١٣.

(3) يس : ٦٠.

وصلى الله وسلم وبارك على الهادى البشير وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان.

المبحث الأول

القوة بالتكرار

أعنى أن بعض الألفاظ القرآنية التي يقوى مبناها لقوة معناها، يكون السبب فى هذه القوة تكرار بعض حروف اللفظ فتمده تلك الزيادة بالتكرار بقوة صوتية تبدو فى شدة جرسه، وثقله على النطق، فتكون تلك القوة اللفظية ترجمة حسية للقوة المعنوية.

وقد ذكرت فى المقدمة أن العلامة ابن جني ـ رحمه الله ـ كان ـ فيما نعلم ـ أول من فتق أكمام أزهار هذا الروض، وأشرت أنه ذكر بعض صور القوة اللفظية الدالة على القوة المعنوية وأننى سأذكر كلامه فى موضعه من الدراسة، وهنا أذكر ما قال فى هذه الصورة.

قال ـ رحمه الله ـ : (هذا فصل فى العربية حسن، منه قولهم : خشن واخشوشن، فمعنى خشن دون معنى اخشوشن، لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو، ومنه قول عمر ـ رضى الله عنه ـ : اخشوشنوا وتمعددوا، أى اصلبوا تناهوا فى الخشنة، وكذلك حلا واحلولى، وخلق واخلولق، وغدن واغدودن) [1] **وإليك نماذج لهذه الصورة:**

---

(١) الخصائص : ٣/٢٦٤.

(١) (فَكُبكِبوا)

قال تعالى : (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) الشعراء : ٩١-٩٥.

هذا التكرار للكاف والباء فى هذه الكلمة المرادة فى هذا السياق (فكبكبوا) هو سر قوتها اللفظية (كب كب) تلك القوة اللفظية واضحة ظاهرة لا تحتاج إلى طول نظر ودقة تأمل، وإنما الذى يحتاج إلى ذلك هو ما يتوارى خلف أستار تلك القوة اللفظية من دلالة معنوية، وهذا ما نحن بصدد بيانه مستمدين من الله عظيم العون، وجميل السداد.

جاءت تلك الكلمة فى سياق الحديث عن النار التى أعدها الله للغاوين الذين عبدوا آلهة مزعومة من دون الله ـ عز وعلا ـ فجاءوا إلى تلك النار المعدة وقد أُظهرت لهم وقربت منهم (وبرزت الحجم للغاوين) وسئلوا سؤال إنكار وتوبيخ وتعجيز وتنكيل (أين ما كنتم تعبدون من دون الله) وتلا هذا السؤال سؤال آخر جاء للتقرير بأن تلك الآلهة لا ينصرونهم ولا يملكون نصر أنفسهم (هل ينصرونكم أو ينتصرون) فلا يجد هؤلاء إجابة ولا حجة، فاستحقوا بذلك هذا المصير وهو أن يُكبوا فى النار كبا هم ومن على شاكلتهم (هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون) هذا السياق المخيف المهيب يخلع القلب ويزلزل جنبات النفس، وقد بدت قوته من أوله (وبُرّزت) بالبناء للمجهول وما يثوي تحته من دلالة على أن الجحيم لم تبرز بنفسها وإنما هناك قوة قاهرة ساقتها وأرغمتها على ذلك ثم لم يأت الفعل (برّزت) بالتخفيف بل جاء بتضعيف الراء (عين الكلمة) وسنعرض هذا النوع من الزيادة وسره فى مقامه،

ونذكره هنا كأحد دعائم هذه القوة التى جاءت اللفظة موضع الدراسة لبيانها. كما نجد فى السياق هنا (ينتصرون) بتاء الافتعال وما تحمله من قوة لفظية تدل على قوة معنوية سنعرض لها كذلك فى موضعها.

فى أعطاف هذا السياق جاءت اللفظة التى نريدها هنا (فكُبْكِبُوا).

يا لها من كلمة قوية ثقيلة شديدة تحكى قوة الكب فى نار جهنم أعاذنا الله من حرها.

وهانحن نقترب من تلكم الكلمة ونتأمل دلالتها ففى لسان العرب : (كَبَّ الشئ يَكُبُّه وكبْكَبَهُ : قلبه، وكبَّ الرجل إناءه يكبُّه كبًّا.. وكبَّهُ لوجهه فانكَبَّ أي صرعه.. الكبَّة بالفتح : شدة الشئ ومعظمة، وكبَّةُ النار صدمتها. وأَكَبَّ على الشئ : أقبل عليه يفعله ولزمه.. والفرس يَكُبُّ الحمار إذا ألقاه على وجهه.. والفارس يَكُبُّ الوحش إذا طعنها فألقاها وجوهها، وكَبَّ فلان البعير إذا عَقَرَهُ.. وأَكَبَّ الرجل يَكُبُّ إِكْبَابًا إذا ما نكس.. وفى التنزيل :

(أفمن يمشى مكبا على وجهه) الملك:٢٢ وكَبْكَبَهُ أى كَبَّهُ وفى التنزيل العزيز : فكبكبوا فيها هم والغاوون) قال الليث : أى دُهْوِرُوا، وجُمِعُوا ثم رُمِيَ بهم فى هُوَّةِ النار، وقال الزجاج : كُبْكِبُوا طُرِح بعضهم على بعض، وقال أهل اللغة : معناه دُهْوِرُوا.وحقيقة ذلك فى اللغة تكرير الانكباب، كأنه إذا ألقى ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فيها . نستجير بالله منها . وقيل قوله : (فكبكبوا فيها) أى جمعوا، مأخوذ من الكبكبة، وكَبْكَبَ الشيء : قلب بعضه على بعض) [١].

([١]) لسان العرب لابن منظور : كبب. وينظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج :١٥٢/١٩.

هكذا نجد مادة (كب) تدور حول الكب والقلب والصرع والتنكيس وفى كل ذلك تخبط وترد وسقوط، وهو معنى لا يختلف مع حال هؤلاء الذين يكبون على وجوههم فى النار، ثم إن تكرار الفعل يحكى تكرار الحدث فهم يكبون مرة بعد مرة، أو يكب بعضهم فوق بعض.

وتكرار هذا الصوت (كب كب) يحكى لنا صوت الانكباب والتدهور الذى صار إليه هؤلاء، وقد أحسن العلامة ابن منظور بين أن أهل اللغة قالوا : (وحقيقة ذلك فى اللغة تكرير الانكباب، كأنه إذا ألقى ينكب مرة بعد مرة).

ويبين الدكتور محمد إبراهيم شادى أن هذا التكرار يدل على كثرة من كبوا وتزاحمهم، فالمكبون كثرة : الغاوون، ومن أضلوهم، وجنود إبليس، فالتعبير يلائم المقام ويجرى مع السياق. قال : (فإن التعبير عن سقوط هؤلاء الغاوين على وجوههم فى النار بقوله : (فكبكبوا) فلم يقل : كبوا، ليشير اللفظ بجرسه إلى أنهم يكبون كبا عنيفا غليظا.

كما يدل تكرار المقطع (كب) على تكرار هذا الدفع، كما يدل على الحركة المضطربة، وهم يدفعون، وكأن بعضهم يدخل فى بعض. وحاجة المقام هى التى اقتضت التعبير بـ (كبكبوا) دون (كبوا) ويبين هذا بالنظر إلى قوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) النمل : ٨٩-٩٠.

فترى التعبير هنا عن السقوط فى النار بقوله : (كب) وهناك بقوله (فكبكبوا) وكل ملائم لغرضه موافق لسياقه، فحيث تعددت أصناف الكفار، وكثر عددهم فشمل الغاوين، ومن أضلوهم ثم جنود إبليس أجمعون، ناسبهم التعبير بـ (كبكبوا) ليكون أبلغ فى الدلالة على حشرهم جميعا على هذه الصفة القوية العنيفة المناسبة لعتوهم وكثرتهم، وحيث لم يذكر تلك الأصناف فى سورة النمل

اكتفى بقوله : (فكبت وجوههم فى النار) على أن السياق فى سورة النمل يحرص على إبراز إهانتهم بطريقة معينة، هى إسناد الكب لأشرف جزء فى الإنسان وهو الوجه، وهنا فى سورة الشعراء لم يرد للوجه ذكر، لأن المقصود الأوضح فيها هو إبراز دفعهم دفعا قويا متكررا عنيفا يجعلهم مضطرين متداخلين مذعورين) [١].

يا لها من قوة لفظية صوتية تحملها هذه اللفظة القرآنية لتؤدى قوة هذا المعنى (الكب فى نار جهنم) وتحكى لنا هذه الهيئة المذرية، التى تحمل من التنكيل والتمثيل بهؤلاء الذين ضلوا الطريق وتنكبوا عن المنهج.

ثم إن الفعل سيق مبنيا للمجهول (كبكبوا) ليبين أن القوم فعل بهم هذا الكب وأرغموا عليه وسيقوا إليه سوقا ودفعوا إليه دفعا، وقد سلبت قوتهم فلم يستطيعوا دفع ذلك عن أنفسهم. وهذا البناء فيه من المهابة والتهويل ما يناسب هذا الكب فالقوة التى كبتهم قوة غائبة عنا مجهولة لنا كغيب القيامة وما يدور فيها إنها قوة الله القاهرة وقوة جنوده الغلاظ الشداد.

والآن ننزل إلى فرسان هذا الميدان من أئمة التفسير لنرى بيانهم الدال على البلاغة الكامنة وراء القوة اللفظية التى تحملها هذه الكلمة القرآنية، وكيف أن غيرها لا يقوم مقامها فى هذا السياق الواصف لإحدى هيئات أهل النار فى النار.

العلامة الفخر الرازي

أبان العلامة الفخر الرازي ـ طيب الله ثراه ـ الدلالة اللفظية المؤدية إلى الدلالة المعنوية إبانة شافية وواضحة، قال : (والكبكبة تكرير الكب، جعل

---

(١) البلاغة الصوتية فى القرآن الكريم : ٣١-٣٢.

التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى، كأنه إذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها، وجنود إبليس متبعوه من عصاة الانس والجن) [1].

يا لها من عبارة دالة وهادية تؤسس لهذا الباب وتقود إلى بحوث بلاغية تطبيقية كأنها لا آخر، تلك العبارة هى : (جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى).

هكذا دعمت الزيادة اللفظية الزيادة المعنوية،ودلت قوة اللفظ على قوة المعنى دلالة صريحة

ـ وليس العلامة الرازي وحده الذى وقف على دلالة هذه الكلمة فى سياقها، بل نجد من العلماء الأعلام : الألوسى، وابن عاشور، والقرطبى والزمخشرى والسمين والشهاب وابن عطية، وإليك ذلك.

العلامة الألوسي

يوضح العلامة الألوسي دلالة هذه الكلمة : (كبكبوا) فى سياقها فيقول : (وقيل لهم : أين ما كنتم فى الدنيا تعبدون ، تستمرون على عبادته، من دون الله، أى أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنهم شفعاؤكم فى هذا الموقف ؟ هل ينصرونكم بدفع ما تشاهدون من الحجيم وما فيها من العذاب ؟ أو ينتصرون بدفع ذلك عن أنفسهم ؟

وهذا سؤال تقريع لا يتوقع له جواب، ولذلك قيل : (فكبكبوا فيها) أى ألقوا فى الجحيم على وجوههم مرة بعد مرة أخرى إلى أن يستقروا فى قعرها، فالكبكبة تكرير الكب، وهو مما ضوعف فيه الفاء كما قال الزجاج وجمهور البصريين،

([1]) التفسير الكبير : ٥١٨/٢٤.

وذهب الكوفيون إلى أن الثالث بدل من مثل الثانى، فأصل : كبكب عندهم كبب، فأبدل من الباء الثانية كاف، وضمير الجمع لما يعبدون من دون الله، وهم الأصنام، وأكد بالضمير المنفصل، أعنى (هم) وكلا الضميرين للعقلاء، واستعملا فى الأصنام تهكما أو بناء على إعطائهم الفهم والنطق، أى كبكب فيها الأصنام والغاوون الذين عدوها) [١].

فى سياق التوبيخ والتقريع لهؤلاء الذين اتخذوا آلهة من دون الله لا يملكون لهم نصرا ولا يستطيعون نصر أنفسهم أوضح العلامة الألوسي دلالة هذه الكلمة رابطا بين مبناها ومعناها، وجعلها مسببة عما قبلها من التوبيخ والتقريع للغاويين ومن لف لفهم، فقال : (ولذلك قيل : فكبكبوا فيها) وقد ذكر كذلك أن الكبكبة تكرير الكب، مبينا أن هذا التكرير المعنوى ناشئ عن التكرير اللفظى، وأن أصل : (كبكب) كبب، وأبدلت الباء الثانية كافا، وتكون الفاء بهذا تكررت، ثم أشار إلى ما يدعم هذا المعنى فى السياق، من جعل ضمير العقلاء للأصنام تهكما، والتوكيد بضمير الفصل (هم).

العلامة الطاهر بن عاشور

يقول ـ رحمة الله عليه ـ : (ومعنى (فكبكبوا) كبوا فيها كبا بعد كب، فإن كبكبوا مضاعف كبوا بالتكرير، وتكرير اللفظ مفيد تكرير المعنى، مثل : كفكف الدمع، ونظيره فى الأسماء، جيش لملم "أى كثير"، مبالغة فى اللم) [٢].

---

(١) روح المعانى : ١٠١/١٠.

(٢) التحرير والتنوير : ١٥٢/١٩.

كلام ابن عاشور يتألق وضوحا فى بيان دلالة تلكم اللفظة القرآنية فى هذا السياق المحكم، وحسبنا هنا أن نتأمل قوله : (وتكرير اللفظ مفيد تكرير المعنى).

العلامة القرطبي

واحد ممن فصل القوة اللفظية المؤدية إلى القوة المعنوية فى هذه اللفظة القرآنية مستأنسا بكلام بعض المفسرين، قال ـ رحمه الله ـ فى : (فكبكبوا فيها) : (أى : قلبوا على رؤوسهم، وقيل دهوروا وألقى بعضهم على بعض. وقيل : جمعوا. مأخوذ من الكبكبة، وهى الجماعة، قاله الهروى. وقال النحاس : هو مشتق من كوكب الشئ أى معظمه. والجماعة من الخيل، كوكب، وكبكبة.

وقال ابن عباس : جمعوا فطرحوا فى النار. وقال مجاهد : دهوروا. وقال مقاتل : قذفوا، والمعنى واحد، تقول : دهورت الشئ إذ جمعته ثم قذفته فى مهواة.

يقال : يُدَهور اللُّقم إذا كبّرها. ويقال فى الدعاء : كب الله عدو المسلمين، ولا يقال : أكبه وكبكبه، أى كبه وقلبه، ومنه قوله تعالى : (فكبكبوا فيها) والأصل : كببوا، فأبدل من الباء الوسطى كاف استثقالا لاجتماع الباءات) [1].

هكذا تتبع العلامة القرطبى دلالة هذه الكلمة عارضا أقوال بعض المفسرين الدالة على قوتها فى لفظها ومعناها.

. أما العلامة الزمخشرى والعلامة ابن عطية والعلامة السمين والشهاب الخفاجى فقد أوضحوا بإيجاز دلالة هذه الكلمة فى سياقها، وما قالوه مذكور

([1]) الجامع لأحكام القرآن : ١١٦/١٣.

فى طي ما ذكرناه من كلام غيرهم مما لا يستدعى ذكره [١]، ففيم ذكرناه مندوحة. وننتقل الى لفظة أخرى.

(٢) (مذبذَبين)

قال تعالى : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا). النساء : ١٤٢-١٤٣.

الآيتان الكريمتان تصفان جانبا من أحوال المنافقين وصفاتهم فهم أهل خداع وتضليل يخادعون الله بأعمالهم الزائفة والله يجازيهم بتلك المخادعة، فمن صفاتهم وإماراتهم أنهم يقومون إلى الصلاة كسالى تتثاقل أجسامهم، وقليلا ما يذكرون الله تعالى، وهم مترددون بين المؤمنين والمشركين، لا يخلصون الإيمان، ولا يصرحون بالكفر، أولئك قد أضلهم الله ولا هادى لهم . فى هذا السياق الفاضح لبعض أخلاق المنافقين تأتى اللفظة التى نريدها، وهى قوله تعالى : فى وصفهم : (مذبذبين)

ونعرض أولا للمعنى اللغوي لهذه الكلمة لنعرف دلالتها اللفظية وصلتها بمعناها الذى جاءت له فى هذا السياق. فى لسان العرب : (والذَّبْذَبَةُ : تَرَدُّدُ الشيء المعلق فى الهواء والذَّبْذَبَةُ والذَّبَاذِبُ : أشياء تعلق بالهودج أو رأس البعير للزينة، والواحد ذَبْذَبٌ.... ورجل مُذَبْذَبٌ ومُتَذَبْذِبٌ : مُتردِّدٌ بين أمرين، أو

---

(١) يراجع : تفسير الكشاف : ٣٢٢/٣، والمحرر الوجيز : ٢٣٦/٤. والدر المصون : ٥٣٤/٨.

بين رجلين، ولا تثبت صحبته لواحد منهما، وفى التنزيل العزيز فى صفة المنافقين : (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) المعنى : مُطَّرِدين مُدَّفِعين عن هؤلاء وعن هؤلاء.... ويجوز أن يكون من الحركة والاضطراب، والتَّذَبْذُبُ التَّحرك، والذبذبة نَوْسُ الشيء المعلق فى الهواء، وتَذَبْذَبَ الشيء : ناس واضطرب) [1]

نجد الكلمة تدور حول الحركة والتردد والاضطراب والتذبذب. وهذه الدلالة متمخضة من ذلك التردد الصوتى الناجم من تكرار الذال والباء (ذب ذب).

وإذا ما أسقطنا هذه الدلالة على حال المنافقين الذين جاء وصفهم فى هتين الآيتين كما بينا، وجدناها بلفظها وصوتها تحكى حالهم حكاية دالة ودقيقة.

فالمنافقون يظهرون الإسلام بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه الكرام، ويبطنون الكفر والكيد للاسلام وأهله. وهم فى تلك الحالة فى حيرة وشتات واضطراب فلا هم يستطيعون الافصاح عن أنفسهم لينضموا إلى المشركين، ولا يخلصون نواياهم ليكونوا من المؤمنين حقا، إنه الاضطراب النفسى والتردد القلبى الدال على اضطراب هؤلاء وتذبذبهم، إن القوة اللفظية التى أنتجها التكرار فى هذه اللفظة تحمل قوة معناها أعنى قوة التردد والاضطراب الذى يعيشه هؤلاء إننا إذ ننطق بهذه الكلمة (مذبذبين) نجد اضطرابا وذبذبة فى اللسان تصدع الآذان مما يحكى تردد هؤلاء المنافقين بين المسلمين والمشركين، ذلك التردد وتلك الذبذبة وهذا الاضطراب مبين فى قوله تعالى ـ بعدها ـ : (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء).

([1]) لسان العرب، ابن منظور : (ذبب).

ـ وإذا ما راجعنا كلام المفسرين وجدنا لبعضهم بيانا للقوة اللفظية الدالة على القوة المعنوية لهذه اللفظة القرآنية المحكمة، فمن هؤلاء :

العلامة الزمخشري

يقول ـ رحمه الله ـ : (ومعنى "مذبذبين" ذبذبهم الشيطان والهوى بين الايمان والكفر، فهم مترددون بينهما متحيرون. وحقيقة المذبذب الذى يذب عن كلا الجانبين، أى يذاد ويدفع فلا يقر فى جانب واحد، كما قيل : فلان يرمي به الرحوان، إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس فى الذب، كأن المعنى : كلما مال إلى جانب ذب عنه. وقرأ ابن عباس : (مذبذِبين) بكسر الذال، يذبذبون قلوبهم، أو دينهم، أو رأيهم، أو بمعنى يتذبذبون، كما جاء، صلصل، وتصلصل بمعنى، وفى مصحف عبد الله : متذبذبين) [١].

هكذا فسرها العلامة جار الله الزمخشرى ووضح دلالتها وحسبنا قوله هنا : (إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس فى الذب) وقد ذكر قراءة ابن عباس : (مذبذبين) بكسر الذال، أي على اسم الفاعل لا المفعول، أي أن الذبذبة تقع منهم لا عليهم، فهم يذبذبون قلوبهم أو رأيهم.. والقوة المعنوية التى أدت إلى القوة اللفظية باقية على القراءتين.

العلامة الطاهر بن عاشور

ومن الأئمة الذين أوضحوا تلك العلاقة بين اللفظ والمعنى فى هذه الكلمة، وبين أن ذلك ناشئ من الزيادة بالتكرير وأن هذا التكرير دال على كثرة المصدر، أى تكرير الذب وكثرته ـ من هؤلاء الأئمة ـ العلامة الطاهر بن عاشور، رحمه الله ـ قال : (والمذبذب : اسم مفعول من الذبذبة، يقال : ذبذبة

---

(١) الكشاف : ١/٥٨٠.

فتذبذب. والذبذبة. شدة الاضطراب من خوف أو خجل، قيل : إن الذبذبة مشتقة من تكرير ذب إذا طرد لأن المطرود يعجل ويضطرب، فهو من الأفعال التى أفادت كثرة المصدر بالتكرير، مثل زلزل ولملم بالمكان وصلصل وكبكب.. لأن الذى يقصد من فعله ارضاء الناس لا يلبث أن يصير مذبذبا، إذا يجد فى الناس أصنافا متباينة المقاصد والشهوات.... وجملة : (لا إلى هؤلاء) صفة مذبذبين لقصد الكشف عن معناه، لما فيه من خفاء الاستعارة أو هى بيان لقوله : (مذبذبين بين ذلك) وهؤلاء أحدهما إشارة إلى المؤمنين، والآخر إشارة إلى الكافرين من غير تعيين، إذ ليس فى المقام إلا فريقان، فأيهما جعلته مشارا إليه بأحد اسمي الإشارة صح ذلك) [1].

بين العلامة ابن عاشور دلالة الكلمة وقوتها الناشئة من التكرير، وكيف جاءت هذه الدلالة مسفرة عن أحوال المنافقين واضطرابهم وعدم استقرارهم على حال، كما بين أن قوله : (لا إلى هؤلاء...) يفسر هذه الذبذبة.

العلامة الألوسي

وقريب مما سبق ما ذكره العلامة الألوسي ـ رحمه الله ـ قال في (مذبذبين) : (والمعنى مرددين بينهما متحيرين قد ذبذبهم الشيطان، وأصل الذبذبة، كما قال الراغب : صوت الحركة للشيء المعلق، ثم استعير لكل اضطراب وحركة، وتردد بين شيئين، والذال الثانية أصلية عند البصريين، ومبدلة من باء عند الكوفيين، وهو خلاف معروف بينهم، وقرأ ابن عباس ـ

([1]) التحرير والتنوير : ٥/٢٤١.

رضى الله عنهما ـ مذبذِبين بكسر الذال الثانية، ومفعوله على هذا محذوف، أى مذبذبين قلوبهم، أو دينهم، أو رأيهم). [١].

أوضح العلامة الألوسى ـ رحمه الله ـ أصل الذبذبة مبينا العلاقة بين معناها الأصلى، وما استعيرت له، فقال هى : (صوت الحركة للشيء المعلق) ولا ريب أن صوت حركة الشئ المعلقة واضح فى صوت هذه الكلمة (ذبذب) التردد الصوتى الناشئ عن تكرار الذال والباء يحكى صوت حركة الشئ المعلق، وهذا جانب من بيان قوة اللفظ لقوة المعنى، ثم قال هذا الاضطراب الحسى استعير لكل اضطراب معنوى أو تردد بين شيئين وهذا ما يكشف عن حال المنافقين فى هذا السياق.

ومن العلماء الذين أوجزوا القول حول هذا المعنى، ابن عطية وأبو السعود، والقرطبى[٢]**، وفيما ذكرنا كفاية عما قالوه.**

(٣) (صَرْصَرًا)

قال تعالى : (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ). فصلت :١٥، ١٦.

---

(١) روح المعانى : ١٦٩/٣. وينظر تفسير البيضاوى وحاشية الشهاب : ٣٧٨/٣.

(٢) يراجع : المحرر الوجيز لابن عطية : ١٢٧/٢، وتفسير أبى السعود : ٢٤٦/٢ والجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ٤٢٤/٥.

قبل هاتين الآيتين جاء التهديد الصارخ والتحدى القارع للمكذبين لدعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) [1] وذلك تخويف لهم إن ظلوا على عنادهم وتكذيبهم بعد إقامة الحجة عليهم، ثم جاءت الآيتان اللتان معنا : (فأما عاد...) بـ (أما) التفصيلية التى تؤذن بعطف (أما) الثانية عليها، والمبينة لإهلاك ثمود قوم نبى الله صالح عليه السلام. (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون) [2]

عرضت الآيتان الكريمتان انتقام الله من عاد قوم نبي الله هود ـ عليه السلام ـ لجحودهم واستكبارهم فى الأرض، ثم ما أدل القيد (بغير الحق) على استحقاقهم العذاب وأن الله فعل بهم ذلك عدلا منه سبحانه وتعلو نبرة الكبر والغرور والعجب فى قولهم : (من أشد منا قوة) إنه استفهام إنكارى يجلجل غرورا وكبرا وبقدر الغرور والصلف يكون الغضب والانتقام، لذلك كان الجزاء : (فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى...)

فى سياق العذاب والإهلاك لهؤلاء الجاحدين المكذبين المستكبرين فى الأرض بغير الحق، جاءت هذه الكلمة متسقة مع السياق : (صرصرا)

إنها تصف الريح التى أرسلها الله عليهم، فهى ريح مجلجلة مدوية ثائرة غاضبة تنقل اليهم غضب الله عليهم.. وكأننا نسمع هذه الصرصرة التى تنقلها لنا مادة : (صر) مكررة، بما تحمله من تكرار الصفير فى صوت الصاد وإعادة التكرير فى صوت الراء، صوت الصرصرة يتكرر ويتردد ليبث الرعب

---

(1) فصلت : ١٣.

(2) فصلت : ١٧.

والهلع فى قلوب هؤلاء، أى ريح هذه التى تذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا.

نعم.. قوة اللفظ هنا تحكى قوة المعنى فهى ريح قوية شديدة، زادتها سورة الحاقة وصفا هو العتو : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) [١].

إنها ريح تقطع الرؤوس وتفرغ البطون مما فيها وتترك القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل فارغة بالية.

وجاء ذكر هذه الريح ووصفها بهذه الصفة (صرصر) مرة ثالثة فى سورة القمر، فى شأن إهلاك عاد كذلك، ليتكرر هذا المعنى الدال على تكرار هذه الريح وقوتها واستمرارها :

(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) [٢]

يالله على هذه الريح التى تنزع الناس !! فأى كلمة إذن أدل على قوتها وشدتها ودوى صوتها من هذه الكلمة ؟ !.

وإذا ما نظرنا إلى الدلالة اللغوية لهذه الكلمة وجذناها تؤيد ما نريده منها وما جاءت لتؤديه فى سياق العذاب (وريح صَرّ وصَرْصَرٌ شديدة البرد، وقيل شديدة الصوت.... وصَرْصَرٌ متكرر فيها الراء، كما يقال : قلقلت الشئ وأقللته،

---

(١) الحاقة : ٦، ٧.

(٢) القمر : ١٨-٢٠.

إذا رفعته من مكانه وليس فيه دليل تكرير، وكذلك، صرصر، وصر وصَلْصَلَ، وصَلَّ، إذا سمعت صوت الصَّرير غير مكرر قلت : صر وصل، فإذا أردت أن الصوت تكرر قلت : قد صلصل وصرصر. قال الأزهرى : وقوله : (بريح صرصر) أى شديدة البرد جدا.

وقال ابن السّكيت : ريح صَرْصَرٌ فيه قولان : يقال أصلها صرر من الصر وهو البرد، فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل، كما قالوا : تجفجف الثوب، وكَبْكَبوا، وأصله تجفف وكبَّبوا، ويقال : هو من صرير الباب،ومن الصَّرَّةُ وهي الضجة... يقال : صَرَّ العصفور يَصِرُّ إذا صاح. وصر الجندب يصر صريرا، وصر الباب يصر. وكل صوت شبه ذلك فهو صرير إذا امتد، فإذا كان فيه تخفيف وترجيع في إعادة ضوعف،كقولك : صرصر الأخطب صرصرة كأنهم قدروا في صوت الجندب المد، وفي صوت الأخطب الترجيع فحكوه على ذلك وكذلك الصقر والبازي) [1]

هكذا تدور مادة هذه اللفظة لاسيما بتضعيفها حول القوة والشدة والتكرير والترجيع ومد الصوت وعلوه، وهذا شأن الريح الصرصر التي أرسلها الله لإبادة عاد وإهلاكهم.

وإلى طرف من كلام العلماء في التوجيه البلاغي الدال على قوة اللفظ لقوة المعنى لتلكم الكلمة الشريفة.

الزمخشري والرازي

يقول العلامة الزمخشري ـ رحمه الله ـ : (الصرصر : العاصفة التي تصرصر أي : تصوت في هبوبها، وقيل الباردة التي تحرق بشدة بردها، تكرير

---

[1] لسان العرب لابن منظور : صرر

لبناء الصر وهو البرد الذي يصر أي يجمع ويقبض، نحسات قرئ بكسر الحاء وسكونها.

ونحس نحسا : نقيض سعد سعدا، وهو نحس :وأما نحس فإما مخفف نحس، أو صفة على فعل كضخم وشبهه. أو وصف بمصدر). [١]

رأينا العلامة الزمخشري يبين القوة اللفظية الماثلة في تكرير الصر (صرصر) والقوة المعنوية في الدلالة على أنها عاصفة تصوت في هبوبها، أوتحرق بشدة بردها.

كما أكد هذه الدلالة في مجئ القيد (في أيام نحسان ووصف الأيام التي أرسلت هذه الريح عليهم فيها بأنها : (نحسات) وقراءة الكسر،أو السكون تدل على المبالغة في صيغة (فعل)، وفي جعلها مصدرا مبالغة كذلك.

أما العلامة الرازي ـ رحمه الله ـ فيزيد ما قاله الزمخشري وضوحا، يقول : (وفي الصرصر قولان أحدهما : أنها العاصفة التي تصرصر أي تصوت في هبوبها، وفي علة هذه التسمية وجوه، قيل إن الرياح عند اشتداد هبوبها يسمع منها صوت يشبه صوت الصرصر، فسميت هذه الرياح بهذا الاسم، وقيل : هو من صرير الباب، وقيل من الصرة والصيحة، ومنه قوله تعالى : (فأقبلت امرأته في صرة) [٢]

والقول الثاني : إنها البرادة التي تحرق ببردها كما تحرق بحرها، وأصلها من الصر وهو البرد، قال تعالى : (كمثل ريح فيها صر) [٣]

---

[١] الكشاف : ١٩٣/٤.

[٢] الذاريات : ٢٩.

[٣] التفسير الكبير : ٥٥٣/٢٧. والآية : ١١٧، آل عمران.

ربط العلامة الرازي بين الدلالة الصوتية للكلمة والدلالة المعنوية فصوت الريح عند الهبوب يسمع لها صرصرة تحكي معنى القوة والشدة، ذلك واضح في قوله : (إن الرياح عند اشتداد هبوبها يسمع منها صوت يشبه صوت الصرصر.....)

البيضاوي والشهاب

يذكر العلامة البيضاوي لهذه اللفظة (صرصرا) دلالتين : أنها الشديدة البرد التي تهلك ببردها، أو شديدة الصوت، والمعنيان يدلان على قوتها وشدتها المدلول عليها بقوة لفظها يقول : (بارة تهلك بشدة بردها، من الصرة، وهو البرد الذي يصر أي يجمع،أو شديدة الصوت في هبوبها من الصرير)

ويعلق العلامة الشهاب الخفاجي على كلام البيضاوي تعليقا موجزا لكنه دال دلالة واضحة على قوة هذه الكلمة الناشئة عن قوة لفظها واتساقه مع المعنى الذي جاءت لتأديته في سياق إهلاك قوم هود عليه السلام، يقول:

(وقوله : (من الصر.....إلخ) بكسر الصاد، ويجوز كونه من الصر بالفتح بمعنى الحر، لأنه رُوي أنهم أهلكوا أنفسهم بالسموم وهو مناسب لديار العرب. وقوله : (يجمع) أي لشدة البرد يجتمع ظاهر جلد الإنسان وينقبض)[1].

هكذا شرح العلامة الشهاب دلالة هذه الكلمة على البرد الشديد وكيف يؤثر في جلودهم، كما أضاف دلالتها على عكس ذلك إذا كانت بفتح الصاد، فتكون بمعنى الحر الشديد.

ابن عاشور والسمين

[1] حاشية الشهاب على البيضاوي : ٣٠٤/٨.

وقريب مما سبق قول العلامة الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ : (والصرصر : الريح العاصفة التي يكون لها صرصرة، أي دوي في هبوبها من شدة سرعة تنقلها، وتضعيف عينه للمبالغة في شدتها بين أفراد نوعها، كتضعيف كبكب للمبالغة في كب، وأصله صر أى صاح) ويفسر ابن عاشور هذه القوة للريح التي أهلكت عادا قوم هود تفسيرا علميا معاصرا فيقول : (وإنما كانت الريح التي أصابت عادا بهذه القوة بسبب انضغاط في الهواء غير معتاد، فإن الانضغاط يصير الشيء الضعيف قويا،كما شوهد في عصرنا أن الأحسام الدقيقة من أجزاء كيماوية تسمى الذرة تصير بالانضغاط قادرة على نسف مدينة كاملة، وتسمى الطاقة الذرية وقد نسف بها جزء عظيم من بلاد اليابان في الحرب العامة) [١]

أوضح العلامة ابن عاشور قوة هذه الفظة الناجمة من التضعيف، كما بين القوة المعنوية لهذه الريح الصرصر وكيف كانت قوتها مهلكة مدمرة.

أما العلامة السمين فيوضح قوة هذه اللفظة لفظا ومعنى كذلك،فهي قوية لها صوت مدوٍ،وهي شديدة البرودة، قال :

(الصرصر : الريح الشديدة فقيل : هي الباردة من الصر وهو البرد. وقيل : هي الشديدة السموم. وقيل هي المصوتة،من صر الباب أى سمع صريره،والصرة الصيحة ومنه : (فأقبلت امرأته في صرة) [٢] **قال ابن قتيبة : صرصر : يجوز أن يكون من الصر وهو البرد، وأن يكون من صر الباب، وأن**

---

[١] التحرير والتنوير : ٢٥٩/٢٤.

[٢] الذاريات : ٢٩.

تكون الصرة وهي الصيحة، ومنه (فأقبلت امرأته في صرة) وقال الراغب : صرصر لفظة من الصر وذلك يرجع إلى الشدة لما في البرودة من التعقد) [١]

ومن العلماء الذين بينوا الدلالة البلاغية في قوة اللفظ لقوة المعنى في هذه اللفظة غير ما ذكرنا : العلامة برهان الدين البقاعي[٢]، والعلامة أبو السعود[٣]. رحمة الله عليهما.

هذه نماذج هادية إلى هذا النوع من القوة في الألفاظ القرآنية الدالة على القوة المعنوية، وهناك لمن أراد أن يتتبع نماذج أخرى لهذا النوع من القوة اللفظية والمعنوية في القرآن الكريم، خذ من ذلك :

(زحزح) من قوله تعالى : (فمن زُحْزِح عن النار وأُدِخل الجنة فقد فاز) [٤]وكيف تدل هذه الفظة على قوة هذه الزحزحة التي تظهر القوة التي وراء هذا الفعل، ومع قوة اللفظ البناء للمجهول الدال على أن هناك قوة قاهرة هي التي تصنع هذه الزحزحة التي فيها الفوز والنجاة من النار.

ومثل (دَمْدَم) في قوله تعالى (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) [٥] وكيف تحكي هذه الكلمة بقوة لفظها قوة الانتقام وشدة الهلاك وكيف أطبق الله عليهم العذاب، وما وراء ذلك من بيان غضب الله على قوم صالح عليه السلام .

---

[١] الدر المصون : ٥١٧/٩، ٥١٨.

[٢] نظم الدر : ١٦٣/١٧.

[٣] تفسير أبى السعود : ٩/٨.

[٤] الزلزلة : ١

[٥] الناس :٤، ٥

تأمل كذلك التكرار الناطق بالقوة في (زلزل) في قوله تعالى : (إذا زلزلت الأرض زلزالها)[١] وكيف تدل هذه القوة اللفظية على قوة الحركة والاضطراب واختلال التوازن للأرض يوم القيامة، وكأن هذا التكرار الذي أكسب الكلمة هذه القوة اللفظية يدل على تكرار المعنى وكثرة الحركة يوم القيامة وأكد ذلك بـ(زلزالها).ومثل (وسوس) في قوله تعالى : (من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس) [٢] هذا التكرار والتردد الصوتي يحكي قوة الوسوسة وترددها في الصدور، وهذا ما يقع في القلوب فيصيبها بالتردد والاضطراب.

---

[١] آل عمران : ١٨٥

[٢] الشمس : ١٤.

المبحث الثاني

القوة بالتضعيف

من المعلوم من اللغة بالضرورة أن الحرف المضعّف (المشدّد) في قوة حرفين، أو هو حرفان أحدهما متحرك والثاني ساكن، وهذا التضعيف في الكلمة تضعيف في معناها، وقوة لفظية تهدي إلى قوة معنوية،وتوظيف ذلك في المقام الذي يقتضيه بلاغة رفيعة المستوى نراها في السياق القرآني في درجة الإعجاز.

وشواهد قوة اللفظ لقوة المعنى بالتضعيف كثيرة في الذكر الحكيم، متعددة الدلالات البلاغية حسبما يقضي السياق.

وإنجازا لما وعدنا في المقدمة نعرض أولا ما قاله العلامة ابن جني في هذا النوع من القوة اللفظية للقوة المعنوية، ثم نعرض بعض نماذجه.

يقول:بن جني في سياق حديثه في الباب الذي أسماه : (قوة اللفظ لقوة المعنى) :

(ومن ذلك أيضا قولهم : رجل جميل ووضئ، فإذا أرادوا المبالغة في لك قالوا : وُضَّاء وجُمَّال، فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معنا..... وكذلك حسَن وحُسَّان، قال :

دار الفتاة التي كنا نقول لها يا ظبيةً عُطُلاً حُسَّانة الجيد

وكأن أصل هذا إنما هو لتضعيف العين في نحو المثال، نحو قطّع وكسّر وبابهما. وذلك نحو قولك : قطَع وقطّع، وقام الفرس وقوَّمت الخيل،

ومات البعير وموّتت الإبل، ولأن العين قد تضعف في الاسم الذي ليس بوصف، نحو قُبِّر وتُمَّر وحُمِّر، فدل ذلك على سعة زيادة العين.

فأما قولهم : خُطَّاف وإن كان اسما فإنه لاحق بالصفة في إفادة منى الكثرة،ألا تراه موضوعا لكثرة الاختطاف به. وكذلك سِكِّين إنما هو موضوع لكثرة تسكين الذابح به، وكذلك البزّار والعطّار والقصّار،ونحو ذلك، إنما هي لكثرة تعاطي هذه الأشياء، وإن لم تكن مأخوذة من الفعل، وكذلك النسّاف لهذا الطائر، كأنه قيل ذلك لكثرة نسفه بجناحيه، وكذلك الخُضَّارَى للطائر أيضا، كأنه قيل له لك لكثرة خضرته، والحوّاري لكثرة حوره وهو بياضة، كذلك الزُّمل والزُّمَّيْل، إنما كررت عينه لقوة حاجته إلى ان يكون تابعاً وزميلا،وهو باب منقاد) [١]

أوضح العلامة ابن جني القوة بالتضعيف إيضاحا لا يحتاج إلى بيان،وعدد ونوع الأمثلة الدالة على ذلك رابطا بين تضعيف اللفظ الذي أمده بالقوة اللفظية، وبين تضعيف المعنى الذي دعا إلى تضعيف اللفظ، مبينا أن هذا الباب يطّرد في الأسماء والأفعال دونما نظر إلى وزن أو صيغة، فهو كما قال : (باب منقاد)

والآن ننتقل إلى بيان جانب من ذلك في النصوص القرآنية.

١ ـ تؤزُّهم أزّا

قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) مريم : ٨٣،٨٤.

---

[١] الخصائص : ٣/٢٦٦، ٢٦٧.

جاء هذا الفعل المضعف (تؤز) ومفعوله المطلق (أزا) في سياق الحديث عن الكافرين المجرمين المارقين من حدود الله الذين اتخذوا من دون الله آلهة لتكون لهم عزا ومنعة كما هو واضح قبل الآيتين:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) [١]

وتأتى الآيتان بيانا قويا لجانب من غضب الله وعقابه لهؤلاء، وتبدو هذه القوة في الاستفهام بـ(ألم تر) وما يحمله من معنى التقرير المصحوب بالتعجب وإثارة الفكر فهو أمر واضح يثير التعجب ممن لا يراه، وينبهه إلى الإقرار به (ومثله شائع في كلام العرب يجعلون الاستفهام على نفي فعل والمرد حصول ضده بحث المخاطب على الاهتمام بتحصيله، أي كيف لم تر ذلك ؟) [٢]

ثم تحديد مصدر الإرسال وما تحمله العبارة من الهيمنة الإلهية الواضحة في نون العظمة بعد نون التوكيد(أنّا أرسلنا) ثم تحديد الجهة المرسل إليها بالقيد بالجار والمجرور: (على الكافرين) ثم النهي الذي يحمل المواساة للمخاطب من جهة والتهديد والوعيد لهؤلاء المكذبين من جهة أخرى.

(فلا تعجل عليهم) فالله تعالى يؤخر عقابهم ويعدد عليهم كل أعمالهم) (إنما نعد لهم عدا) إنه العد والإحصاء المسوق في أسلوب القصر بـ (إنما) ثم تضعيف الفعل (نعد) وتوكيده بالمفعول المطلق (عدا) وهو يحمل هذه القوة اللفظية والمعنوية التي نحن بصدد بيانها ويجري مع الكلمة مع موضع الدراسة

---

[١] مريم : ٨١، ٨٢.

[٢] التحرير والتنوير :١٦/١٦٥.

هنا يجري معها في بيان هذه القوة اللفظية الدالة على قوة العقاب لهؤلاء الكافرين.

عن ابن عباس أنه كان إذا قرأها بكى،وقال :آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد دخول قبرك، آخر العدد فراق أهلك. وعن ابن السّماك ـ رحمه الله ـ أنه كان عند المأمون فقرأها فقال :إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد) [١]

هكذا تنخرط هذه الكلمة (نعد عدا) في هذا السياق. لكن القوة في الكلمة التي معنا أقوى لفظا ومعنى ولذلك يتسلط قلمنا عليها :

(تؤزّهم أزّا)

ونتجه إلى الدلالة اللغوية المبنية لقوة هذه الكلمة:

(أزَّت القدر تؤزُّ وتئِزّ أزا وأزيزاً وأزازاً وائتزَّت ائتزازاً اشتدّ غليانها..... وأزّ بها أزّا أوقد النار تحتها لتغلي أبو عبيدة الأزير الالتهاب والحركة كالتهاب النار في الحطب.

يقال : (أزّ قدرك أي ألهب النار تحتها. والأزّة : الصوت والأزيز النشيش. والأزيز : صوت غليان القدر والأزيز: صوت الرعد من بعيد أزّت السحابة تئِز أزّا وأزيزا..... والأزّ : التهييج والإغراء وأزه يؤزه أزا أغراه وهيجه. وأزّه حثه، وفي التنزيل العزيز : (أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا)

---

[١] التفسير الكبير للرازي: ٢١/٥٦٥.

قال الفراء: أى تزعجهم إلى المعاصي وتغريهم بها. وقال : مجاهد : تشليهم إشلاء وقال الضحاك : تغريهم إغراء. ابن الأعرابي : الأُزَّاز : الشياطين الذين يؤزون الكفار وأزه أزا وأزيزا مثل هزه. وأَزَّ يَؤُزُّ أَزًّا وهو الحركة الشديدة)[١]

تدو مادة هذه الكلمة كما رأينا حول الشدة ولحركة والالتهاب وصوت الغليان، والحث والإغراء والإزعاج. وهذا يعني تتداخل الدلالة اللفظية والدلالة المعنوية فالقوة الناشئة عن تضعيف الزاي وما تحدثه من هذا الصوت القوي، تدل على القوة المعنوية التي تفعلها الشياطين مع هؤلاء حيث تغريهم وتحركهم وتدفعهم إلى المعاصي دفعاً.

وإلى فرسان الرهان نرى كيف أوضحوا القوة اللفظية والمعنوية في هذه الكلمة لتؤدي دورها في هذه السياق المحكم وكيف أن هذه القوة غاية في البلاغة.

الزمخشري والرّازي

أما الأول فيقول : (الأز، والهز،والاستفزاز :أخوات،ومعناها التهييج وشدة الإزعاج، أي : تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات والمعنى: خلينا بينهم وبينهم ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم قسرا والمراد تعجيب رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار وأقاويلهم،وملاحتهم، ومعاندتهم الرسل، واستهزاؤهم بالدين:من تماديهم في الفي وإفراطهم في العناد، وتصميمهم على الكفر، واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه، وانتفاء الشك عنه،وانهماكهم لذلك في إتباع الشياطين، وما تسول لهم) [٢]

---

[١] لسان العرب : أزز.

[٢] الكشاف :٣/٤٢.

(الأز، والهز والاستفزاز : أخوات) بهذا كشف العلامة الزمخشري عن بلاغة هذه القوة اللفظية، ثم القوة الدلالية بأنها تعني : التهييج وشدة الإزعاج، وكأن شدة الأز كانت لشدة الحركة والإزعاج والإغراء أي المعاصي.ولم يهمل ذلكم العلامة الفذ سياق هذا اللفظ،وكيف أنه سياق شدة وغضب، فبعد أن فسر بلاغة الاستفهام ربطه بالسياق الذي انتظمه،فقال: (والمراد تعجيب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار.)

السياق إذن سياق قوي شديد صارخ في مواجهة هؤلاء العتاة الجبارين.

وأما الثاني فيقول : (قال ابن عباس :تؤزهم أزا : أي تزعجهم في المعاصي إزعاجا، نزلت في المستهزئين بالقرآن وهم خمسة رهط) [١] ثم ينقل كلام صاحب الكشاف السابق. هكذا يتفق العلامة الرازي مع العلامة الزمخشري في بيان القوة اللفظية المقرونة بالقوة المعنوية لتؤدي دورها في هذا السياق الكريم، ونلحظ ان العلامة الرازي زاد ذكر سبب النزول،الذي يكشف عن بلاغة هذه القوة في هذا السياق.

الألوسي والقرطبي

ولقد كان العلامة الألوسي ـ رحمه الله ـ موفقا في بيان بلاغة القوة في هذه اللفظة، من خلال بيان السياق الذي جاءت فيه. قال : (تؤزهم أزا) تغريهم وتهيجهم على المعاصي تهييجا شديدا بأنواع التسويلات والوساوس،فان الأز والهز، والاستفزاز أخوات، معناها شدة الإزعاج،وجملة (تؤزهم) إما حال مقدرة من الشياطين،أو استئناف وقع جوابا عما نشا من صدر الكلام كأنه قيل : ماذا

---

[١] التفسير الكبير :٢١/٥٦٥.

تفعل الشياطين؟ فقيل : تؤزهم الخ، والمراد من الآية تعجيب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما تضمنته الآيات السابقة من قوله ـ سبحانه ـ (ويقول الإنسان أإذا ما مت) [١] إلى هنا، وحكته عن هؤلاء الكفرة الغواة والمردة العتاة من فنون القبائح والأقاويل والأفاعيل والتمادي في الغي والانهماك في الضلال، والإفراط في العناد والتصميم على الكفر من غير صارف ولا عاطف يثينهم والإجماع على مدافعة الحق بعد إيضاحه وانتفاء الشرك عنه بالكلية وتنبيه على ان جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم، لا لأن هناك قصورا في التبليغ أو مسوغا في الجملة، وفيها تسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهي تذييل لتلك الآيات لما ذكر.وليس لمراد منها تعجيبه عليه الصلاة والسلام ـمن إرسال الشياطين عليهم، كما يوهمه تعليق الرؤية به بل مما ذكر من أحوالهم من حيث كونها من آثار إغواء الشياطين كما ينبئ عن ذلك قوله ـ سبحانه ـ (تؤزهم أزا فلا تعجل عليهم) [٢]

بين العلامة الألوسي شدة الإغواء والتهييج من خلال بيان معنى الأز لكنه أبدع وأجاد في بيان السياق الذي جاءت فيه تلك اللفظة الواصفة لفعل الشياطين بالكافرين، وكيف أنها جاءت حالا مقدرة من الشياطين،أو استئناف بياني[٣] يجيب على سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا تفعل الشياطين فجاء الجواب بهذه القوة اللفظية والمعنوية (تؤزهم أزا) ثم اقترب من هذا السياق،وذكر ان

---

[١] مريم :٦٦٠.

[٢] روح المعاني : ٨/٤٥٠.

[٣] وهو أن تكون الجملة الثانية (جوابا عن سؤال اقتضته الأولى ، فتنزل منزلته فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال) الإيضاح ضمن الشروح : ٣/٥٣.

الاستفهام التعجبي (ألم تر) ؟ كان تعجيبا مما تضمنته الآيات السابقة في هذا السياق بدءا من قوله تعالى : (ويقول الإنسان أإذا ما مت.....) وقد فصل تفصيلا رائعا أبان فيه أنهم استحقوا هذا الأز والهز والإغراء والتهييج القوي الشديد، لموقفهم الدنيء، وتصميمهم على الكفر، ومدافعة الحق بعد إيضاحه.....الخ. وقد ذكر العلامة أبو السعود ما ذكره الألوسي مع اختلاف يسير (١)

ـ أما العلامة القرطبي ـ رحمة الله عليه ـ فقال : (قال ابن عباس: تزعجهم إزعاجا من الطاعة إلى المعصية، وعنه تغريهم إغراء بالشر :امض امض في هذا الأمر حتى توقعهم في النار،حكى الأول الثعلبي،والثاني الماوردي والمعنى واحد.... وأصله الحركة والغليان...وائتزت القدر ائتزارا اشتد غليانها والأز التهييج والإغراء) (٢)

أورد العلامة القرطبي كما رأينا معنى الأز وما تحمله الكلمة من معنى الحركة القوية الشديدة وما تحمله هنا من شدة التهييج والإغراء الذي تفعله الشياطين بالكافرين.

الطاهر بن عاشور والبقاعي

يوضح العلامة ابن عاشور بلاغة الاستفهام الذي في صدر الآية (ألم تر)؟ مما يمهد لمعنى الأز وما يحمله من قوة اللفظ لقوة المعنى، ثم يوضح معنى أز الشياطين للكافرين، ذلك في كلام معبر ودقيق.

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود:٥/٢٨١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١١/١٥٠.

قال ـ رحمه الله ـ : (والاستفهام في (ألم تر) تعجيبي، ومثله شائع في كلام العرب، يجعلون الاستفهام على نفي فعل والمراد حصول ضده بحث المخاطب على الاهتمام بتحصيله،اى كيف لم تر ذلك ؟ ونزل إرسال الشياطين على الكافرين لا تضاح أثره منزلة الشئ المرئي المشاهد، فوقع من مرآة بقوله: ألم تر ذلك؟!.

والأز :الهز والاستفزاز الباطني،مأخوذ من أزيز القدر إذا اشتد غليانها شبه اضطراب اعتقادهم وتناقض أقوالهم واختلاف أكاذيبهم بالغليان في صعود وانخفاض وفرقعة وسكون، فهو استعارة فتأكيده بالمصدر ترشيح) [١]

بهذا بين الطاهر بن عاسشور ، أن الأز معناه الهز والاستفزاز الباطني ولهذا صرفه على الاستعارة على تشبيهه بالغليان والحركة والضطراب ، وهذا يعني أن هذه اللفظة نقلت لنا قوة الحركة وشدة الاضطراب لفظا ومعنى .

أما العلامة برهان الدين البقاعي فيصرف معنى الأز على الاستعارة ايضا،مبينة قوة المعنى الذي دعا اى قوة اللفظ في هذا السياق، قال في (تؤزهم أزا): (اى تحركهم تحريكا شديدا،وتزعجهم في المعاصي والدنايا التي لا يشكون في قباحتها وعظيم شناعتها،وهم اشد الناس عيبا لفاعليها وضما لمرتكبيها،إزعاجا عظيما بحيث يكونون في تقلبهم ذلك مثل الماء الذي يغلي في القدر،ومثل الشر والمتطاير الذي هو اشد شئ منافاة لطبع الطين، وملاءمة لطبع النار) [٢]

٢ـ يُدَعُّون دعًّا

---

[١] التحرير والتنوير : ١٦٥/١٦.

[٢] نظم الدرر : ٢٤٦/١٢.

قال تعالى : (يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا فويل يومئذ للمكذبين الذين هم في خوض يلعبون يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التي كنتم بها تكذبون) الطور : ١٠. ١٤.

بعد القسم الذي افتتحت به السورة الكريمة،والذي يؤكد وقوع عذاب الله عز وجل : (إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع) [١] وقد جاء الجواب هكذا قويا مؤكدا لوقوع العذاب الذي لا يستطيع أحد دفعه،كما يدل على ذلك دخول النفي على النكرة (من دافع) فلا يستطيع احد كائنا من كان ان يدفعه، ثم صيغة اسم الفاعل (دافع) وما تحمله من معنى الثبوت والدوام فعدم القدرة على الدفع أمر ثابت دائم مستقر، وتأتي الآيات التي معنا سيرا مع هذا السياق القوي المجلجل بغضب الله جل جلاله، لتعرض جانبا من أهوال يوم القيامة، فالسماء تمور،والجبال تسير ويؤكد المور والسير بالمفعول المطلق (مورا،سيرا) في هذه الأهوال الويل للمكذبين (الذين هم في خوض يلعبون) فليس يخوضون فحسب بل جعلهم بحرف الظرفية (في خوض) فما أشد انغماسهم وتلبسهم بالخوض واللعب وتأتي الكلمة التي نريدها وسط هذه السياق القوي الصارخ بالأهوال والعذاب،لتعرض لنا صورة من صور العذاب لهؤلاء المكذبين : (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا

(يُدعُّون دعًّا)

جاءت هذه اللفظة بتلك القوة التي أمدها بها التضعيف، تضعيف العين،والتوكيد بالمفعول المطلق (دعا) هذه القوة اللفظية تنبئ عن القوة المعنوية لهذا الدّع القوي الشديد، دع لا قبل لهم به من قوة لا طاقة لهم بها كما يعطي ذلك البناء للمجهول (يُدعون) إنها قوة جبارة مجهولة لهم.

---

[١] الطور : ٧، ٨.

وإذا اقتربنا من المعنى اللغوي لهذه الكلمة وجدنها تدل على ذلك، ففي لسان العرب :

(دعه يدعه دعا : دفعه في جفوة، وقال ابن دريد: دعه دفعه دفعا عنيفا، وفي التنزيل : (فذلك الذي يدع اليتيم) [1] أي يعنف به عنفا دفعا وانتهازا، وفيه (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) وبذلك فسره أبو عبيدة فقال : (يدفعون دفعا عنيفا.....وقال مجاهد : دفرا في اقفيتهم..... الدَّعُّ : الطَّرْدُ والدَّفْعُ) [2]

هكذا تدور المادة حول الدفع العنيف، والانتهار الشديد، وهذا ما يحدث للمكذبين إذ يُقذفون ويُدفعون في النار دفعا شديدا والنار دركات إلى أسفل، ونجد ذلك في معنى الدع أيضا فقد كر ابن منظور ذلك في قوله : (دفعه في جفوة)

يا لها من لفظة شديدة قوية لا يؤدي غيرها ما تؤديه في ذلك السياق المرعب المفزع المخيف الذي يصور النكال بهؤلاء المكذبين يوم يدفعون في نار جهنم هذا الدفع الشديد ثم يقال لهم تنكيلا وتأنيبا: (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) وسنتتبع كلام الأئمة في بيان بلاغة هذه الكلمة في هذا السياق وكيف قوي لفظها لقوة معناها.

الزمخشري والرازي

يقول العلامة الزمخشري ـ رحمه الله ـ : (الدع : الدفع العنيف،وذلك ان خزنة النار يغلّون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى

---

[1] الماعون : ٢

[2] لسان العرب : دعع

أقدامهم،ويدفعونهم إلى النار دفعا على وجهوهم، وزخا على أقفيتهم..... دعا: مدعوعين، يقال لهم:هذه النار) [١]

في هذه العبارات الموجزة بين لنا العلامة الزمخشري، القوة المعنوية لهذه اللفظة القوية وكيف وفت بالدلالة الواصفة لمشهد مخيف لأهل النار إذ يلقون فيها، في ذلكم السياق الذي يعرض لنا صورة من صور العذاب المهين لهؤلاء المكذبين كما شرح لنا

دلالة الدع على العنف والرمي والقذف الشديد وكيف يفعل بهم هذا وهم مغلولون مكبلون،ويقال لهم :تأنيبا وتنكيلا : هذه النار.

. أما العلامة الفخر الرازي . طيب الله ثراه . فقد أجاد وأفاد وصرح بما نريده في هذا المقام، فقد ذكر ان في قوله تعالى : (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) مباحث لفظية ومعنوية،مبينا أن في اللفظية مسائل،ذكر الدع في هذه المسائل بدلالته اللفظية وما تحمله من قوة وشدة، ثم ذكر الدلالة المعنوية وما تحمله هذه الفظ من دلالة على أن خزنة النار يدفعون على هيئة مخصوصة تحمل من الشدة والمهانة والتنكيل بهم ما تحمل!!

وقد أحسن . رحمه الله . لما ربط الدلالة البلاغية لهذه الكلمة بسياقها القوي، حيث جعل قوتها مترتبة ودالة على ما تحمله كلمة (الويل) ببناء حروفها من قوة وشدة تكشف عن قوة الويل وشدته لهؤلاء المكذبين الذين جرى السياق المحكم على بيان حالهم وما يصير إليه أمرهم من العذاب والنكال، وهذا كلامه . رحمة الله عليه :

---

[١] الكشاف :٤/٤٠٩،وينظر روح المعاني :١٤/٣٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي :١٧/٦٤.

(والويل ينبئ عن الشدة، وتركيب حروف : الواو، والياء واللام، لا ينفك عن نوع شدة، منه لوى إذا دفع، وهو يلوي إذا كان قويا، والولي فيه القوة على المولى عليه، ويدل عليه قوله تعال: (يدعون) فان المكذب يدع ، والمصدق لا يدع.... والخوض نفسه خص في استعمال القرآن بالاندفاع في الأباطيل..... وتنكير الخوض يحتمل وجهين، أحدهما ان يكون للتكثير، أي في خوض كامل عظيم،ثانيهما : أن يكون التنوين تعويضا عن المضاف إليه)

بعد بيان هذا السياق ينتقل إلى الحديث في قوله تعالى : (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) فيقول : (وفيه مباحث لفظية، ومعنوية أما اللفظية ففيها مسائل :..... المسالة الثانية : قوله يدعون إلى النار يدل على هول نار جهنم،لان خزنتها لا يقربون منها، وإنما يدفعون أهلها إليها من بعيد،ويلقونهم فيها وهم لا يقربونها.

المسالة الثالثة :دعا مصدر، وقد ذكرت فائدة ذكر المصادر وهي الإيذان بأن الدع دع معتبر، يقال له دع، ولا يقال فيه ليس بدع،كما يقول القائل في الضرب الخفيف مستحقرا له : هذا ليس بضرب، والعدو المهين : هذا ليس بعدو في غير المصادر، والرجل الحقير ليس برجل.... أما المعنوية فنقول قوله تعالى : (يوم يدعون إلى نار جهنم) يدل على أن خزنتها يقذفونهم فيها وهم بعداء عنها. وقال تعالى: (يوم يسحبون في النار) [1] نقول : الجواب عنه من وجوه أحدهما : أن الملائكة يسحبونهم في النار، ثم إذا قربوا من نار مخصوصة هي نار جهنم يقذفونهم فيها من بعيد، فيكون السحب في النار، والدفع في نار أشد وأقوى، ويدل عليه قوله تعالى: (يسحبون في الحميم ثم

---

[1] القمر : ٤٨

في النار يسجرون) [١] أي يكون لهم سحب في حموة النار ثم بعد ذلك يكون لهم إدخال. الثاني : جاز أن يكون في كل زمان يتولى أمرهم الملائكة، فقال النار يدفعهم ملك،وفي النار يسحبهم آخر.....) [٢]

بهذا العرض المفصل بين لنا العلامة الرازي هذه اللفظة في سياقها وكيف قوي لفظها وقوي معناها لتؤدي دورها، وقد بان ذلك في كلامه أيضا وهو يوضح عدم التعارض بين، دلالة التعبير هنا على أنهم يدعون فيها من بعيد، وبين أن الملائكة يسحبونهم فيها وبداخلها. وقد ذكر شيخ زادة ـ رحمه الله ـ في تعليقه على كلام البيضاوي ما ذكره العلامة الفخر الرازي[٣]

الطاهر بن عاشور

من العلماء الذين بينوا القوة المعنوية المؤدية إلى القوة اللفظية الناجمة عن التضعيف في هذه اللفظة (يُدعون دعا) العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ يقول:

(والدع : الدفع العنيف وذلك إهانة لهم وغلظة عليهم، أي يوم يساقون إلى نار جهنم سوقا بدفع، وفيه تمثيل حالهم بأنهم خائفون متقهقرون فتدفعهم الملائكة الموكلون بإزجائهم إلى النار.وتأكيد (يدعون) بـ(دعا) لتوصل إلى إفادة تعظيمه بتنكيره) [٤]

---

[١] غافر:٧١،٧٢

[٢] التفسير الكبير :٢٨/٢٠٥،٢٠٤

[٣] ينظر حاشية شيخ زاة على البيضاوي٧/٧١٨، ٧١٩.

[٤] التحرير والتنوير :٢٧/٤٣.

ما أجمل ما ذكره العلامة ابن عاشور من بيان ما تؤديه قوة هذا اللفظ بتضعيف عينه وتوكيده بـ(دعا) من الإهانة لهم والغلظة عليهم،وبيان خوفهم وتقهقرهم،وكأنه بين لنا ان غلظة اللفظ كانت لغلظة المعنى، لتكون الغلظة على أهل النار في الآخرة لغلظة قلوبهم في الدنيا، فأى تعبير يقوم مقام هذا التعبير في هذا السياق القرآني البديع ؟.

ومن العلماء الذين وقفوا مع هذه اللفظة، العلامة السمين، والعلامة النيسابوري رحمهما الله، وفيما ذكرنا كفاية عن ذكر كلامهما[1].

٣ـ رُجَّت رَجًّا

قال تعالى (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا)

الواقعة : ١-٦.

في مطلع تلكم السورة المباركة يأتي الحديث عن الواقعة،وهو اسم من أسماء يوم القيامة، ويأتي القيد بـ(إذا) وبعدها الفعل الماضي لتحقق الوقوع وتأكيده، وأنها تقع لا محالة،وحينئذ لا نستطيع نفس تكذيبها لان وقوعها سيكون واقعا مشاهدا فلا يردها احد ولا يدفعها دافع ، وبوقوعها تتغير الموازين الزائفة ، ويرفع من يستحق الرفعة ويخفض من يستحق الخفض، ترفع أولياء الله في الجنات لأنها درجات،وتخفض أعداء الله في النار لأنها دركات.

---

[1] يراجع :الدر المصون:١٠/٦٧.وغرائب القرآن:٦/٩٣.

أو ترفع أقواماً كانوا مخفوضين في الدنيا،وتخفض أقواما كانوا مرفوعين في الدنيا.

(والخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة والعز والمهانة ، ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة توسعا ومجازا على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لم يكن منه الفعل، يقولون: ليل نائم ونهار صائم.... والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله وحده، فرفع أولياءه في أعلى الدرجات، وخفض أعداءه في أسفل الدركات) [١]

وتأتي الآية الحاملة لتلك اللفظة التي نريدها في هذا السياق (إذا رجت الأرض رجا) فتكشف عن جانب من الهول والمهابة الخالعة للقلوب المزلزلة للنفوس، فحيث تقع الواقعة يكون من أهوالها هذا الاضطراب وذلك الرجّ الشديد.

الكلمة التي قويت بالتضعيف في هذا السياق المخيف هي : (رجت) الشدة الناشئة من حرف الجيم وتضعيفه وما يترتب عى ذك من صوت قوي شديد يحكي تلك الرجة القوية الشديدة، إن ارتجاج اللسان بهذا الحرف ينطق بارتجاج الأرض وتحركها وزلزلتها، ثم التوكيد بالمصدر (رجا) يزيد الرجة قوة واهتزاز وتكرارا، نعم إن التضعيف هنا في اللفظ يدل على التضعيف في المعنى.

وبناء الفعل للمجهول يتعاون في أداء تلك الدلالة، فالأرض لا تتحرك بنفسها راغبة ولكنها تتحرك راغمة تحركها قوة غالبة قاهرة لا تجدلها دفعاً.

---

[١] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي :١٩٦/١٧.

وإذا ما تأملنا معنى هذا الفعل (رج) في اللغة وجدنا دلالته لا تخرج عن هذا ففي لسان العرب : (والرَّجُّ: التحريك، رَجَّهُ يَرُجُّهُ رَجًّا : حركة وزلزلة فارتجَّ، ورَجْرَجَهُ فتَرَجْرَجَ.

والرج : تحريكك شيئا كحائط إذا حركته، ومنه الرجرجة، قال الله تعالى : (إذا رجت الأرض رجا) فمعنى رجت :حركت حركة شديدة وزلزلت. والرجرجة :الاضطراب وارتج البحر وغيره : اضطرب) [1]

هكذا دلت المادة على الحركة الشديدة والاضطراب والزلزلة ، ولا تنصرف الدراسة في هذا السياق إلى التضعيف في (بست) وتوكيدها كذلك بالمفعول المطلق (بسا) لأن التضعيف هنا إنما يدل على كثرة التفتيت والخفة والانتشار، مما تحكيه السين بتكرارها وصفيرها، فالكلمة مع التضعيف خفيفة رقيقة، وقد أشرت في المقدمة إلى أن هذه الدراسة تحتاج إلى شقيقة لها تتناول خفة اللفظ لخفة المعنى.

وهذه اللفظة (بست بسا) تتناغم مع السياق العام لهذا المشهد وليس معنى خفتها أن السياق جمع بين الاضداد، بل إن الشدة والقوة في حركة الأرض استدعت هذه الكلمة (رجت رجا) س والخفة والتفرق والانتشار في حركة الجبال، استدعت هذه الكلمة (بست بسا) زد على ذلك أن كلمة البس وإن كانت خفيفة في مبناها وصوتها فهي قوية في معناها للدلالة على القوة التي فتت هذه الجبال الرواسي ولذلك زيدت بيانا بقوله تعالى بعدها (فكانت هباء منبثا) فكانت خفتها كالهباء والذر المتطاير بقوة الله جل جلاله، نحن هنا ندرس القوتين معاً اللفظية والمعنوية.

---

[1] لسان العرب : رجج.

وسنرى ذلك في كلام أعلام المفسرين ونناقشه

١ـ القرطبي وابن عاشور

لعل العلامة القرطبي ـ رحمه الله ـ كان أفضل من كتب في بيان القوة اللفظية والمعنوية في هذه الكلمة موضحا بلاغة تلك القوة في هذا السياق (رجت رجا)

قال: (أي زلزلت وحركت،عن مجاهد وغيره، يقال : رجه يرجه رجا أي حركه وزلزله. وناقة رجاء أي عظيمة السنام، وفي الحديث : (من ركب البحر حين يرتج فلا ذمة له) [١]

يعني إذا اضطربت أمواجه قال الكلبي : وذلك أن الله تعالى إذا أوحى إليها اضطربت فرقا من الله تعالى.

قال المفسرون :ترتج كما يرتج الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها،وينكسر كل شئ عليها من الجبال وغيرها.وعن ابن عباس : الرجة الحركة الشديدة ، يسمع لها صوت.... وقيل :أي اذكر (إذا رجت الأرض رجا) مصدر وهو دليل على تكرير الزلزلة)[٢]

هكذا بين العلامة القرطبي معنى (رجت) ودلالتها على الحركة الشديدة والاضطراب العظيم، وكيف أن هذا الرج يزيل كل ما عليها ويهدمه، من جبال وغيرها، وذلك تصوير مفزع لهذا الهول الذي تنقله لنا هذه الكلمة في سياق ذكر وقوع الواقعة، وبين كذلك أن شدة الرج يسمع له صوت وهذا يضاعف من بيان الهول الذي يكون عند الانقلاب الكوني الهائل عند قيام الساعة، ولا

---

[١] معرفة الصحابة لأبي نعيم : ١٢٢٧/٣ .

[٢] .الجامع لأحكام القرآن :١٩٦/١٧.

يخفي أن شدة صوت الجيم وتضعيفه يحكي جانبا صوتيا من الحركة والاضطراب مما يدل على حركة رج الأرض لتعانق الدلالة اللفظية الدلالة المعنوية.

أما العلامة ابن عاشور ـ رحمة الله عليه ـ فيقول :

(والرج: الاضطراب والتحرك الشديد،فمعنى رجت: رجها راج وهو ما يطرأ فيها من الزلازل والخسف ونحو ذلك.وتأكيده بالمصدر للدلالة على تحققه،وليتأتى التنوين المشعر بالتعظيم والتهويل) [1]

بين العلامة الطاهر بن عاشور، أن الرج يعني الاضطراب الشديد،وهو ما يطرأ عليها يوم القيامة من الزلازل والخسف ونحو ذلك،كما المح إلى بلاغة البناء مجهول قائلا : (فمعنى رجت: رجها راج) كما بين بلاغة التوكيد بالمصدر (رجا) ودلالة تنوينه على التعظيم.

٢ ـ الزمخشري والرازي

يربط العلامة الزمخشري دلالة هذه الفظة القوية على الحركة الشديدة، بالسياق الذي جاءت فيه وما يحمه دلالة على تقلب الأمور وتغاير الموازين، فما يحمله الرج من تقليب الأرض والهزهزة الشديدة لها حتى يخرج ما في بطنها على ظهرها، يتناغم مع ما يحدث من بس الجبال وتفتتها،وما يحدث لأحوال الناس من رفع أقوام وخفض آخرين.

قال ـ رحمه الله ـ : (ترفع أقوما وتضع آخرين : إما وصفا لها بالشدة لأن الواقعات العظام كذلك، يرتفع فيها ناس إلى مراتب ويتضع ناس . وإما لأن

---

[1] التحرير والتنوير :٢٧/٢٨٤.

الاشقياء يحطون إلى الدركات والسعداء يرفعون إلى الدرجات . وإما أنها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارها، فتخفض بعضا وترفع بعضا، حيث تسقط السماء كسفا،وتنثر الكواكب وتنكدر،وتسير الجبال فتمر في الجو مر السحاب، وقرئ : خافضةً رافعةً بالنصب على الحال. رجت : حركت تحريكا شديداً ينهدم كل شئ فوقها من جبل وبناء، وبست الجبال وفتت حتى تعود كالسويق، أو سيقت من بس الغنم إذا ساقها، كقوله: (وسيرت الجبال) [١] منبثا متفرقا، وقرئ بالتاء أي : منقطعا... فإن قلت : بم انتصب إذا رجت ؟ قلت:هو بدل من إذا وقعت. ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة أي: تخفض وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال، لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض) [٢]

بهذا اتضحت قوة هذه اللفظة(رُجّت) لقوة المعنى الذي تؤديه في ذلك السياق الصارخ بقوة الموقف وشدته عند وقوع الواقعة، ويكفي أن ننظر إلى هذا الربط في قوله: (تخفض وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال)

أما العلامة الرازي فيوضح كذلك دلالة السياق على القوة اللفظية والمعنوية لهذه الكلمة وبيان دلالة التوكيد بالمصدر (رجا) على ذلك، وأن الخفض والرفع يحدث عند رج الأرض وبس الجبال. قال ـ رحمة الله عليه ـ :

(أى كانت الأرض كثيباً والجبال مهيلا منبسطا..... وقد تقدم بيان فائدة ذكر المصدر، وهي أنه يفيد أن الفعل كان قولا معتبرا ولم يكن شيئا لا

---

[١] النبأ : ٢٠

[٢] الكشاف : ٤٥٦/٤ وينظر روح المعاني :١٣١/١٤، وتفسير أبي السعود : ١٨٨/٨.

يلتفت إليه،ويقال فيه : إنه ليس بشئ.... والعامل في (إذا رجت) هو قوله : (خافضة رافعة) تقديره تخفض الواقعة وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال، والفاء للترتيب الزماني، لأن الأرض ما لم تتحرك والجبال ما لم تنبس لا تكون هباء منبثا، والبس: التقليب، والهباء هو الهواء المختلط بأجزاء أرضية تظهر في خيال الشمس إذا وقع شعاعها في كوة، وقال الذين يقولون إن بين الحروف والمعاني مناسبة: إن الهواء إذا خالطه أجزاء ثقيلة أرضية ثقل من لفظه حرف، فأبدلت الواو الخفيفة بالباء التي لا ينطق بها إلا بإطباق الشفتين بقوة ما لو في الباء ثقل ما) [1]

جاء بيان دلالة (رجت) بقوتها الصوتية في سياق هذه القوة التي أوضحها العلامة الرازي، حيث يقع هذا الانقلاب الكوني المروِّع. وقد ذكر لطيفة تجري مع ما نحن فيها من بيان قوة اللفظ لقوة المعنى في : (رجت رجا) وذلك أن النظم الحكيم عدل عن التعبير بـ(الهواء) لى التعبير بـ(الهباء) فقد استخدم الأخيرة مبدلا الواو باء، وذلك أن الهباء هو الهواء الثقيل إذ إنه مصحوب ببعض الأجزاء الأرضية من الذرات التي ترى في شعاع الشمس حيث تسقط من نافذة وسط الظل، ولما كان الهباء أثقل استخدم اللفظ الأثقل. (الهباء) فالباء أثقل من الواو، لما يتكبده النطق بها من إطباق الشفتين، وفي الكلمة بعد كل هذا تصوير للجبال التي بست وكأنها هواء مصحوب بذرات صغيرة (هباء).

وهذا بيان رائع ودقيق من العلامة الفخر الرازي يؤكد ما نحن بصدد بيانه من قوة اللفظ بالتضعيف لقوة المعنى.

---

[1] التفسيرالكبير :٣٨٦/٢٩.

٣ـ الطبـري

يوضح العلامة الطبري معنى (رجت) بإيجاز دال على المراد في هذا السياق فيقول : (وقوله : (إذا رجت الأرض رجا) يقول تعالى ذكره : (إذا زلزلت الأرض زلزالها) [١] فحركت تحريكا من قولهم: السهم يرتج في الغرض، بمعنى يهتز ويضطرب، وبنحو الذي قلنا قال أهل التأويل... عن ابن عباس قوله : (إذا رجت الأرض رجا)س يقول : (زلزلها) [٢]

يكفينا قول الطبري في بيان الرج والاهتزاز ولاضطراب : (السهم يرتج في الغرض،بمعنى يهتز ويضطرب)

٤ ـ (غَلَّقَـت)

قال تعالى : (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) يوسف : ٢٣.

تأتي الآية الكريمة في مقام المراودة والاستمالة من امرأة العزيز لنبي الله يوسف عليه إسلام، ومع أن مقام المراودة مقام لطف وود وتقرب، كما هو واضح من كلمة (المراودة) فقد جاءت هذه الكلمة (غلّقت) قوية شديدة بالتضعيف (وأصل المراودة: الإرادة والطلب برفق ولين، والريادة طلب الكلأ،

---

[١] الزلزلة : ١

[٢] جامع البيان : ٢٢/٢٨١، ٢٨٢ ويراجع الدر المصون،السمين:١٠/١٩٤.

وقيل : هي من رويد، يقال : فلان يمشي رويدا أي برفق، فالمراودة الرفق في الطلب) [١].

ويقول الزمخشري : (المفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب، كأن المعنى خادعته عن نفسه،أي : فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشئ الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه) [٢]

هكذا في المراودة لين وطلب برفق ومخادعة واحتيال، ويتضح ذلك اللين والاحتيال في قولها : (هيت لك) ولكن السياق القرآني المحكم يأبي إلا أن يكشف عن حقيقة تلك المراودة وذلك الطلب الذي هو آية الإغراء في تأجيج تلك الغريزة ـ يأبى السياق ـ إلا أن يكشف أن وراء هذه الملاينة قوة وحرقة وشهوة تتأجج كالنار، فهي لم تفعل ذلك إلا وهي متمكنة مسيطرة على يوسف ـ عليه السلام ـ كما كشف السياق عن ذلك لما عرف بالموصولية (التي هو في بيتها) ففيه لفت إلى أنه في سلطانها وتحت قبضتها (في بيتها)

(لقصد ما تؤذن به الصلة من تقرير عصمة يوسف ـ عليه السلام ـ لان كونه في بيتها من شانه أن يطوعه لمرادها،وبيتها بيت سكناها الذي تبيت فيه، فمعنى هو في بيتها أنه كان حينئذ في البيت الذي هي فيه) [٣]

---

[١] تفسير القرطبي : ١٦/٩.

[٢] الكشاف للزمخشري :٤٥/٢.

[١] التحرير والتنوير لابن عاشور :٢٥٠/١٢.

إذن في أعطاف هذا اللين سيطرة وقوة وتحكم في إدارة ذلك الحدث الشنيع وعندئذ تبرز هذه القوة المثوية تحت ضعف خضوع الشهوة ولين الطلب، فتأتي هذه الكلمة:

(غَلَّقَت)

بتضعيف العين لتحكي تلك القوةُ اللفظية القوةَ المعنوية الكاشفة عن قوة امرأة العزيز من ناحية، ولم لا وهي امرأة العزيز ؟! والكاشفة عن أحكام الغلق وتكثيرة وتعدد الأبواب من ناحية أخرى: (قال سيبويه : غلقت الأبواب للتكثير) (١)

جاءت هذه الكلمة إذن في هذا السياق دالة قوية معبرة، لقد أحكمت امرأة العزيز غلق الأبواب كلها وهي أبواب كثيرة قيل سبعة كما سيتضح لنا في كلام العلماء، وكما يدل على ذلك صيغة الجمع(الأبواب) إن القوة اللفظية هنا جاءت لتقوي الدلالة المعنوية لهذه الكلمة وتكشف عن شدة حرص امرارة العزيز على ألا يخرج يوسف وألا يدخل عليهما أحد كما تسفر عن شدة رغبتها في الوقوع بها وإتمام الفاحشة في مأمن من الناس.

وهذا ماجاء وقت استبانته في في كلام أعلام المفسرين.

١- البيضاوي والشهاب الخفاجي

يقول العلامة البيضاوي : (وغلقت الأبواب، قيل كانت سبعة والتشديد للتكثير،أو للمبالغة في الإيثاق) بهذا الكلام الموجز بين العلامة البيضاوي

---

(٢) لسان العرب : غلق.

بلاغة التضعيف هنا وهو أن تشديد العين زيادة في اللفظ أدت إلى زيادة وتكسير ومبالغة في المعنى.

ويعلق العلامة شهاب الدين الخفاجي على كلام البيضاوي هذا فيقول : (يعني أنه للتكثير في المفعول إن قلنا بتعددها، فان التفعيل يكون بتكثير الفاعل، والمفعول، فان لم نقل به فهو لتكثير الفعل، فكأنه غلق مرة بعد مرة، أو بمغلاق بعد مغلاق، وجمع الأبواب حينئذ، إما لجعل كل جزء منه كأنه باب، أو لجعل تعدد إغلاقه بمنزلة تعدده) [١]

بين الشهاب بتعليقه هذا دلالة التشديد في عين الكلمة من هذا الفعل بيانا يكشف عن قوة المعنى بسبب هذا التضعيف، فقد دل ذلك على تكثير الفعل وتعدده وتكراره أو تعدد المغاليق التي يغلق بها الباب.

وذكر نحو هذا الكلام العلامة، الرازي،وأبو السعود والقرطبي رحمهم الله[٢]

---

[١] حاشية الشهاب على البيضاوي: ٢٨٦/٥.

[٢] ينظر التفسير الكبير : ٤٣٨/١٨، وتفسير أبي السعود:٢٦٥/٤، وتفسير القرطبي:١٦/٩.

٢ـ ابن عاشور، ورشيد رضا والشعراوي

أما الأول، فقد قال كلاما موجزا لكنه في غاية الإصابة للدلالة البلاغية فيما نحن فيه، قال : (وتضعيف (غلقت) لإفادة شدة الفعل وقوته، أي: أغلقت إغلاقا محكما) [١]

لقد ذكر ابن عاشور أن الشدة والتضعيف في اللفظ سبب في الشدة والقوة والتضعيف في المعنى،بكلام واضح ودال وصريح.

وأما الثاني فيقول: (وغلقت الأبواب) أي أحكمت إغلاق باب المخدع، وباب البهو الذي يكون أمام الحجرات والغرف في بيوت الكبراء، وباب الدار الخارجي، وقد يكون في أمثال هذه القصور أبواب أخرى متداخلة) [٢]

أبان الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ بلاغة التضعيف بأسلوب جديد طريف، فجعله دالا على إحكام الغلق من ناحية، وتعدد الأبواب كما تخيلها في القصور من ناحية أخرى.

وأما الثالث فيقول : (وكلمة (غلقت الأبواب) توضح المبالغة في الحدث أو لتكرار الحدث، فهي قد أغلقت أكثر من باب، ونحن حين نحرك المزلاج لنؤكد غلق الباب، ونحرك المفتاح، ونديره لتأكيد غلق الباب، فهذه عملية أكبر من غلق الباب، وإذا أضفنا مزلاجا جديدا نكون قد أكثرنا الإغلاق لباب واحد، وهكذا يمكن أن نصف ما فعلنا أننا غلّقنا الباب.

---

[١] التحرير والتنوير :١٢/٢٠٥

[٢] تفسير المنار:١٢/٢٢٨

وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب، فقصور العظماء بها أكثر من باب، وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء في بيته لتجده في استقبالك بعد أول باب، بل يجتاز الإنسان أكثر من باب ليلقى العظيم الذي جاء ليقابله.... فنجد امرأة العزيز قد غلقت الأبواب، لأن من يفعل الأمر القبيح يعلم قبح ما يفعل، ويحاول أن يستر فعله، وهي قد حاولت ذلك بعيدا عن من يعملِون أو يعيشون في القصر) [1]

ما أروع ما ذكره العلامة الشعراوي ـ رحمه الله ـ في بلاغة التضعيف في (غلقت) وكيف دل التكثير في اللفظ على التكثير في الحدث ودلت القوة اللفظية على القوة المعنوية،كما أضاف أن التضعيف دل على تكثير الأبواب من ناحية، وإحكام الإغلاق لكل باب بأكثر من مزلاج من ناحية أخرى.

كما بين دور هذه القوة في مقام المراودة وأن هذا يعكس جانبا من قلق امرأة العزيز وإحساسها بقبح ما تفعل، فدل التضعيف على ذلك.

٥ـ اثَّاقَلْتُم

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

التوبة:٣٨.

---

[1] تفسير الشعراوي :١١/٦٩٠٦، ٦٩٠٧.

الآية الكريمة تنادي طائفة من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوة تبوك، أو العسرة، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، تعاتبهم على تخلفهم وقعودهم عن الجهاد والخروج مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلودهم إلى الأرض، وتوبخهم بأن هذا رضا بالمتاع العاجل في الدنيا وترك النعيم المقيم الآجل في الآخرة، ومتاع الحياة الدنيا في الآخرة قليل.

تبدأ الآية بالنداء الذي يستنفر الهمم، ويستنهض العقول أن تنتبه وتفيق من غفلتها : (يا أيها الذين امنوا) وبعد النداء يأتي الاستفهام التعجبي التوبيخي التقريعي (ما لكم إذا قيل انفروا؟) وبعده استفهام توبيخي آخر معبأ باللوم والتأنيب : (أرضيتم بالحياة الدنيا في الآخرة ؟) ما كان ينبغي أن تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير. ثم يأتي أسلوب القصر المحقر لمتاع الدنيا بقياسه إلى متاع الآخرة: (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل)

هذا هو سياق الآية والمقام الذي نزلت فيه، وهو سياق تأنيب ولوم وتخويف، وتهديد يأتي في الآية التي بعد هذه الآية: (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [١]

تهديد بالعذاب الأليم والاستبدال. والمقام مقام حرب وجهاد وحر وعسرة.

وفي خلال هذا تأتي تلك الكلمة القوية بالتضعيف،ليدل قوة لفظها على قوة معناها، حيث لا يصلح غيرها في هذا المقام، ألا وهي كلمة :

---

[١] التوبة : ٣٩.

(اثَّاقَلْتُم)

وأصلها : تثاقلتم، فأدغمت التاء في الثاء ، لقرب المخرج فاحتجنا إلى ألف الوصل، لنصل بها إلى النطق بالساكن، فجاءت هذه الكلمة بهذا الثقل اللفظي، الذي يدل على ثقل المعنى وقوته فهذا الثقل يحكي التثاقل والتخاذل واللصوق بالأرض رغبة عن الجهاد والخروج هكذا هو تثاقل (إلى الأرض) وخلود إليها .

نعم .. تثاقلت نفوسهم فتثاقلت أجسادهم والعبارة بهذا كناية عن التكاسل وكراهية الخروج

للغزو.

وفي سياق الحديث عن العيوب المخلة بفصاحة الكلمة،يذكر العلامة أبو موسى، أن هذا الثقل في الكلمة ضرب من فصاحتها في هذا السياق،يقول : (انظر كلمة: (اثاقلتم) في قوله تعالى: (يا أيها الذين امنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض) تجد فيها قدرا من الثقل الفصيح لأنه يصف تقاعسهم وتثاقلهم وخلودهم إلى الأرض، واستشعارهم مشقة الجهاد، وعزوف أرواحهم عنه،وقد دعوا إليه في عام العسرة، فكان منهم ما وصفت الآية، ولذلك جاء التهديد البالغ ليواجه تخاذل أرواحهم،فقال سبحانه: (إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولاتضروه شيئا) [1]

والآن نعرض جانبا من كلام المفسرين في ذلك.

١ـ العلامة الطاهر بن عاشور

---

[1] خصائص التراكيب : ٣٣.

يقول ـ رحمه الله ـ : (واثاقلتم أصله تثاقلتم، قلبت التاء المثناة ثاء مثلثة لتقارب مخرجيهما طلبا للإدغام..... والتثاقل: تكلف الثقل، أي إظهار أنه ثقيل لا يستطيع النهوض، والثقل حالة في الجسم تقتضي شدة طلبه للنزول إلى أسفل،وعسر انتقاله،وهو مستعمل هنا في البطء مجازا مرسلا، وفيه تعريض بأن بطأهم ليس عن عجز، ولكنه تعلق بالإقامة في بلادهم وأموالهم.

وعدي اتثاقل بـ(إلى) لأنه ضمن معنى الميل والإخلاد، كأنه تثاقل يطلب فاعله الوصول إلى الأرض للقعود والسكون بها..... ومجموع قوله : (اثاقلتم إلى الأرض) تمثيل لحال الكارهين للغزو المتطلبين للعذر عن الجهاد كسلا وجبنا بحال من يطلب منه النهوض والخروج، فيقابل ذلك الطلب بالالتصاق بالأرض والتمكن من القعود، فيأبى النهوض فضلا عن السير. وقوله : (إلى الأرض) كلام بوجه بديع لان تباطءهم عن الغزو وتطلبهم العذر،كان أعظم بواعثه رغبتهم البقاء في حوائطهم وثمارهم[١]

فصل العلامة ابن عاشور، الثقل اللفظي في هذه الكلمة والذي نشا من الإدغام للتاء في الثاء، ثم الثقل المعنوي في دلالة هذه الكلمة وما تحمله من تكلف الثقل والخلود إلى الأرض وجعل العبارة من قبيل التمثيل لحال الكارهين للغزو المتطلبين للعذر عن الجهاد كسلا وجنبا بحال من يطلب منه النهوض فيقابل ذك بالخلود إلى الأرض والالتصاق بها، وكلامه بين لا يحتاج إلى بيان.

٢ـ العلامة القرطبي

---

[١] التحرير والتنوير :١٠/١٩٧/١٩٨.

يقول ـ رحمه الله ـ : (قال المفسرون : معناه اثاقلتم إلى نعيم الأرض، أو إلى الإقامة بالأرض، وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج، وهو نحو من أخلد إلى الأرض، وأصله: تثاقلتم، أدغمت التاء في الثاء لقربها منها، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن.ومثله (ادّركوا)الأعراف : ٣٨.

و(فادّارأتم) البقرة: ٧٢ و(اطّيرنا) النمل:٤٧ و(ازّينت) يونس : ٢٤. [1]

هكذا وضّح القرطبي الثقل الذي دلت عليه هذه الكلمة الثقيلة بالتضعيف الناشئ عن إدغام التاء في الثاء ثم دلالتها على التثاقل والقعود عن الجهاد، وكيف أن هذا الثقل في هذه الكلمة وصياغتها كان توبيخا لهم على ذلك.

٣ـ العلامة الشعراوي

يقول ـ رحمه الله ـ : (والثقل معناه : أن كتلة الشئ تكون زائدة على قدرة من يحمله، فإن قلت: إن هذا الشئ ثقيل فهذا يعني أن وزنه مثلا أكبر من قوة عضلاتك فلا تستطيع ان تحمله. أما التثاقل فهو عدم موافقة الشئ لطبيعة التكوين،كأن تقول : فلان ثقيل، أي وزنه ضخم ولا يستطيع ان يقوم من مكانه إلا بصعوبة، ولا أن يتحرك إلا بمشقة. ولكن التثاقل معناه تكلف المشقة،أي : لك قدرة على الفعل، ولكنك تتصنع أنك غير قادر، كأن يكون هناك ـ على سبيل المثال ـ شئ وزنه رطل، ثم تتدعى أنه ثقيل عليك ولا تستطيع أن تحمله.

---

[1] تفسير القرطبي :٨/ ١٤٠.

إذن فقوله تعالى : (اثاقلتم إلى الأرض) أي : تكلفتم الثقل بدون حقيقة، فأنتم عندكم قدرة على القتال ولكنكم تظاهرتم بأن لا قدرة لكم. وهكذا نعرف أن الموقف يقتضي النفرة ليواجهوا الكفر، لأن المنهج الذي ارتضوه لأنفسهم والتزموا به يحقق السلامة والأمن والاطمئنان لهم ولغيرهم، وكأن التثاقل إلى الأرض له مقابل، فالنفرة تكون في سبيل الله، والمقابل في سبيل الشيطان، أو في سبيل شهوات النفس)[١]

بهذا التفصيل الدقيق المصّور لثقل هذه الكلمة، شفى العلامة إمام الدعاة ـ رحمه الله ـ غلتنا من دلالة هذه الكلمة وربطها بالسياق والمقام الذي نزلت فيه، وكيف كانت مصورة لافتعال التثاقل على وجود القدرة وهذا ما استوجبوا من أجله اللوم والتوبيخ، وقد بين كذلك الفرق بين ثقل، وتثاقل إلى غير ذلك مما نراه في كلامه واضحا.

وبه ننهي الحديث في هذا المبحث لننتقل إلى المبحث الثالث.

---

[١] تفسير الشعراوي : ٨/٥١٠٧، ٥١٠٨.

المبحث الثالث

القوة بتاء الافتعال

١- اكْتَسَبَت .

قال تعالى : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) البقرة:٢٨٦.

تعرض الآية الكريمة جانبا من رحمة الله في التكليف فلم يكلف الله سبحانه نفسا إلا ما تطيقه وتستطيع القيام به، ولم يكلفنا فوق طاقتنا حتى لا نتعلل بالعجز عن القيام بما أمرنا وكلفنا به سبحانه وتعالى.

ثم بعد هذا التكليف الذي يقيم الحجة علينا ، لكل نفس ما كسبته من الحسنات، وعليها ما اكتسبته من السيئات وهذا عدل الله في التكليف، وكأن الآية تقول: إذا كان الله لم يكلف نفسا فوق طاقتها فإنه سيحاسبها بما لها وما عليها وليس لها أن تتعلل أو تحتج، فإن فعلت وقامت بما كلفت به فذلك لها ولا يعود على الله منها شئ لأنه الغني ، وإن لم تفعل فذلك عيها لا يضر الله من ذلك شئ.

والكلمة التي نريدها في هذا السياق هي كلمة : (اكتسبت)

وقد قويت هذه الكلمة بتاء الافتعال، وقد جاءت في مقابلة (كسبت) وقد دعانا هذا التغاير في السياق الحكيم إلى النظر والتأمل فلِمَ لَمْ يأت التعبير فيهما بـ(كسبت) أو بـ(اكتسبت) ؟!

وإذا كان في (اكتسبت) زيادة لفظية أمدتها قوة في الجرس وثقلا في النطق ـمما لا يوجد في (كسبت) فإن الزيادة والقوة اللفظية تمدها بزيادة وقوة

معنوية، والذي يبدو من السياق المحكم أن القوة في هذه الكلمة جاءت مع السيئة المدلول عليها بـ(عليها) ليشعرنها بالخطورة المترتبة على ذلك، ويخيفنا من المصير الذي تسوقنا إليه، فكما يستثقل اللسان اللفظ تستثقل النفس المعنى: أما الخفة فجاءت مع الحسنة (كسبت) المدلول عليها بـ(لها) ليشعرنا بحسن الثواب المترتب عليها لتستشرف إليها النفس ويتضاعف رغبتها في كسبها بتضاعف جزائها، وكأن خفتها على اللسان جعلها خفيفة على النفس ، يقوي ذلك الطباق بين (لها) و(عليها). لأن (لها) تعني في صالحها وفي نفعها وثوابها، و(عليها) تعني في أذاها وضرها وعقابها.

نخلص من هذا أن الاكتساب افتعال وتكلف ومشقة ولا يوجد ذلك في الكسب، فجاءت (كسب) خفيفة اللفظ لتحكي خفة المعنى، يقول سيبويه:كسب أصاب،واكتسب :تصرف واجتهد) [١] وقد أشرت في المقدمة أن هذه الدراسة لها شقيقة تتناول خفة اللفظ لخفة المعنى، لعل الله ييسرها لنا يوما.

العلامة ابن جني

وقد وقف العلامة ابن جني ـ رحمه الله ـ مع هذا النوع من القوة، ومع هذه الكلمة في الآية الكريمة (اكتسبت) في الباب الذي ألهمنا بهذه الدراسة. قال :

(ومثله باب فعل وافتعل، نحو قدر واقتدر،فاقتدر أقوى معنى من قولهم: قدر كذلك قال أبو العباس، وهو محض القياس، قال الله ـ سبحانه : (أخذ عزيز مقتدر) [٢]

---

[١] لسان العرب : لابن منظور: (كسب)

[٢] القمر :٤٢.

فمقتدر هنا أقوى من قادر، من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ، وعليه عندي قول الله ـ عز وجل ـ : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وتأويل ذلك أن كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغر، وذلك لقوله ـ عز اسمه ـ : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلايجزئ إلا مثلها) [1]

أفلا ترى أن الحسنة تصغر إضافتها إلى جزائها صغر الواحد إلى العشرة، ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها لم تحتقر إلى الجزاء عندها، فعلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنة.... فإذا كان فعل السيئة ذاهبا بصاحبه إلى هدف الغاية البعيدة المترامية،عظم قدرها، وفخم لفظ العبارة عنها : فقيل : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فزيد في لفظ فعل السيئة، وانتقص من لفظ فعل الحسنة لما ذكرنا، ومثله سواء بيت الكتاب :

إنا اقتسمنا خطتينا بيننا فحملت برة واحتملت فجار

فعبر بالبر بالحمل،وعن الفجرة بالاحتمال. وهذا هو ما قلناه في قوله ـ عز اسمه ـ : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) ولا فرق بينهما) وذاكرت بهذا الموضع بعض أشياخنا من المتكلمين فسر به وحسن في نفسه) [2]

ولا أجد عندي تعليقا يوفي ما قاله العلامة ابن جني حقه في بيان بلاغة التعبير بـ(اكتسب) بقوتها وثقلها بمصاحبة (كسب) بخفتها ولينها)

وأن اكتساب السيئة ثقيل وشاق بالقياس إلى جزائها وكسب حسنة خفيف مرغوب لأنها صغيرة بالقياس إلى جزائها إذ الحسنة بعشر أمثالها. ثم إن

---

[1] الانعام:١٦٠

[2] الخصائص :٣/٢٦٦،٢٦٥.

عقاب السيئة عذاب ونكال، وثواب الحسنة نعيم وحسن مآب. لذلك زيد في لفظ فعل السيئة، وانتقص في لفظ فعل الحسنة، وبهذا يكون العلامة ابن جني بين بيانا كافيا شافيا بلاغة قوة هذه الكلمة بتاء الافتعال، وأن قوة اللفظ كانت لقوة المعنى، والزيادة في المبنى للدلالة على الزيادة في المعنى.

وسنرى ذلك واضحا في كلا بعض علماء التفسير، ونبدأ بالعلامتين :

الزمخشري والألوسي

يقول الأول : (ينفعها ما كسبت من خير، ويضرها ما اكتسب من شر، لا يؤاخذ بذنبها غيرها، ولا يثاب غيرها بطاعتها فان قلت : لم خص الخير بالكسب، والشر بالاكتساب ؟ قلت : في الاكتساب اعتمال، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمارة به، كانت في تحصيله أعمل وأجد، فجعت لذلك مكتسبة فيه، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وضفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال) [١]

وقد وجه العلامة الزمخشري بلاغة التعبير : بالاكتساب توجيها شفى وهْمًا كان قد تطرق إلى نفسي هو أنني كنت أقول : ما يتبادر إلى الذهن أن الاكتساب وما فيه من ثقل يكون في جانب الخير والحسنة،لأن النفس تثتثقلها لجموحها بفطرتها إلى الشر والمعاصي ويكون كذلك الكسب في جانب الشر والسيئة لأن فعلها خفيف على النفس وهي إليه أسرع فلما قرأت كلام العلامة الزمخشري ذهب عني هذا الوهم، حيث بين ـ طيب الله ثراه ـ أنه لما كانت النفس أرغب في الشر وأجد في تحصيله، ناسب ذلك التعبير بما يدل على

---

[١] الكشاف : ٣٣٢/١.

الجد والسعي والتعمل وهو الاكتساب، (ولما لم تكن كذلك في باب الخير رصف بما لا دلالة فيه على الاعتمال).

أما العلامة الألوسي ـ رحمه الله ـ فيقول في (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) : (جملة مستأنفة سيقت للترغيب والمحافظة على مواجب التكليف والتحذير عن الإخلال بها ببيان أن تكليف كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير يتضمن مراعاة منفعة زائدة، وإنها تعود إليها لا إلى غيرها، ويستتبع الإخلال بها مضرة تحيق بها لا بغيرها، فإن اختصاص منفعة الفعل بفاعله من أقوى الدواعي إلى تحصيله، واقتصار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته..... والضمير في (لها) للنفس العامة، والكلام على حذف مضاف، هو ثواب في الأول وعقاب في الآخر ومبيّن (ما) الأولى الخير لدلالة اللام الدالة على النفع عليه،ومبين (ما) الثانية الشر لدلالة (على) الدالة على الشر عليه.

وإيراد الاكتساب في جانب الأخير لما فيه من زيادة المعنى وهو الاعتمال، والشر تشتهيه النفس وتنجذب إليه فكانت أجد في تحصيله، ففيه إشارة إلى ما جبلت عليه النفوس، ولما لم يكن مثل ذلك في الخير استعمل الصيغة المجردة عن الاعتمال) [1]

بعد أن بين العلامة الألوسي ـ رحمة الله عليه ـ دلالة السياق على أن الكسب في جانب الخير، والاكتساب في جانب الشر، ودلالة حرف الجر (اللام) و (على) على هذا التقابل ـ بعد بين هذا وإيضاحه ـ يلتقى مع العلامة الزمخشري في أن الافتعال كان استجابة

---

[1] روح المعاني : ٦٧/٢.

لرغبات النفس وجدها في الشر، والصيغة المجردة كانت لذلك في جانب الخير، وقد ذكر العلامة أبو السعود نحوًا من هذا [١]

٢- البيضاوي والشهاب

يقول العلامة البيضاوي في كلا موجز وموف بالغرض وسر بلاغة التعبير بـ(اكتسب) في جانب الشر، و(كسب) في جانب الخير:

(وتخصيص الكسب بالخير، والاكتساب بالشر، لأن الاكتساب فيه اعتمال والشر تشتهيه النفس وتنجذب إليه فكانت أجد في تحصيله وأعمل بخلاف الخير)

ويعلق العلامة الشهاب على قول البيضاوي هذا بقوله : (والحاصل أن الصيغة لما دلت على زيادة معنى وهو الاعتمال والانجذاب إليه وردت في الشر إشارة إلى ما جلبت عليه النفوس، واستعمل مقابلها في الخير لعدم ذلك فيه.

وقال ابن الحاجب : أنه يدل على زيادة لطف من الله في شأن عباده إذا أثابهم على الخير كيفما وقع، ولم يجزهم على الشر إلا بعد الاعتمال والتصرف) [٢]

وكلامهما ليس ببعيد عما ذكره الزمخشري والألوسي، غير أن الشهاب ذكر لطيفة ابن الحاجب التي ربط بها بين بلاغة التعبير وقوته بتاء الافتعال، وبين لطف الله ورحمته بعباده في مجازاتهم حيث لم يجزهم على الشر إلا بعد الاعتمال والجهد والمشقة، وهو ربط رائع بين اللفظ والمعنى.

---

[١] ينظر تفسير أبي السعود: ٢٧٧/١.

[٢] حاشية الشهاب على البيضاوي :٦٢٠/٢. ويراجع المحرر الوجيز لابن عطية :٣٩٣/١.ونظم الدرر للبقاعي :١٧٧/٤.

الإمام الشعراوي

ولعل العلامة محمد متولي الشعراوي ـ رحمه الله ـ أخذ عصارة فكر من سبقه من المفسرين وأضاف عليه من خواطره التي أفاض الله عليه بها، فنراه يبين لنا الفرق بين كسب واكتسب في توجيه شاف مؤيد بالأمثلة وهذا كلامه في قوله تعالى : (لها ما كسبت وعيها ما اكتسبت) : (لها، تفيد الملكية والاختصاص، وهي ما تفيد وتكسب النفس ثوبا، و (عليها) تفيد الوزر..... وهنا وقفة في الأسلوب،لأن (كسب) تعني أن هناك فرقا في المعالجة الفعلية الحديثة بينها وبين كلمة (اكتسبت) لأن اكتسب فيها(افتعل) أي تكلف وقام بفعل اخذ منه علاجا، أما (كسب) فهو أمر طبيعي، إذن فـ(كسب) غير (اكتسب) وكل أفعال الخير تأتي كسبا لا اكتسابا.

مثال ذلك عندما ينظر الرجل إلى زوجته ويرى جمالها فهل هو يفتعل شيئا، أو أن ذلك أمر طبيعي ؟ إنه أمر طبيعي، ولكن عندما ينظر الرجل إلى غير محارمه فإنه يرقب هل يرى أحد النظرة ؟ وهل رآه أحد من الناس. وهل سينال سخرية واستهزاء على ذلك الفعل أو لا ؟ لماذا؟ لأنه ارتكب عملا مفتعلا...فصاحب الشر يفتعل، أما صاحب الخير فإن أفعاله سهلة لا افتعال فيها فالشر هو الذي يحتاج إلى افتعال والمصيبة الكبرى ألا يحتاج الشر إلى افتعال،لأن صاحبه يصير إلى بلادة الحس الإيماني، وتكون الشرور بالنسبة إليه سهلة،لأنه تعود عيها كثيرا.... ففي المرحلة الأولى من الشر يكون أهل الشر في حياء من فعل الشر، وذلك دليل على أن ضمائرهم وقلوبهم ما زال فيها بعض من خير، لكن عندما يعتبرون الشر حرفة وملكة فهنا المصيبة..... إذن فقول الحق : (لها ما كسبت وعيها ما اكتسبت) يوضح لنا أن فعل الشر هو الذي يحتاج إلى مجهود فإن انتقلت المسألة من اكتسبت

إلى كسبت فهذه هي الطامة الكبرى، ويكون قد أحاطت به خطيئته،ويكون على كل نفس ما اكتسبت) [١]

هكذا بين العلامة الشعراوي، لأن الثقل في كلمة اكتسبت كان لأن أفعال الشر والمعاصي، تحتاج إلى افتعال ومشقة لأن الذي يفعل السوء يخشى أن يراه الناس فيستخفي عن عيونهم خوفا وحياء، وفي ذلك افتعال ومشقة، فلما كان الفعل فيه افتعال جاء الفظ بصيغة الافتعال كذلك أما أفعال الخير فلا افتعال فيها، فجاء اللفظ بغير افتعال،هذا هو الطبيعي الذي جرت عليه الفطرة القويمة فإذا لم يجد فاعل الشر افتعالا فتلك هي المصيبة !!.

---

[١] تفسير الشعراوي : ٢/١٢٤٤، ١٢٤٥.

العلامة الطاهر بن عاشور

ذكر العلامة ابن عاشور أن (كسب) و(اكتسب) بمعنى واحد في كلام العرب، وقد غاير بينهما للتفنن والمغايرة في الأسلوب حتى لا يجري الكلام على وتيرة واحدة ، وهذا من ابن عاشور لا يستساغ إذا إن منهجه التماس السر البلاغي وربطه بالمقام ، فالقول بالتفنن عيّ عن إدراك السر البلاغي، والقرآن لا يعدل عن تعبير إلى غيره لمجرد التفنن، وقد اعترض على توجيه الزمخشري السابق، مستدلا بأن (كسب) تأتي في جانب الشر كذلك، كما في قوله تعالى: (ولا تكسب كل نفس عليها) [1]

ولسنا معه كذلك، لان السياق يختلف، فالسياق هنا سياق تكليف من الله لعباده ، تكليف في حدود الوسع والطاقة .ولو أن سياق الدراسة يتسع لذلك، لبينا أن اختلاف السياق فيه دلالة على المغايرة والاختلاف.

٢ـ يَصْطَرِخُون

قال تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) فاطر: ٣٦،٣٧.

حديث الآيتين حديث يخلع القلب هولًا ومهابة،يغرس في النفوس خوفا ورهبة، فهؤلاء الذين كفروا جزاء كفرهم وخيم،وعاقبة أمر خسر (لهم نار جهنم)

---

[1] الانعام :١٦٤. وينظر التحرير والتنوير: ٣/١٣٨،١٣٧.

هكذا بالتقديم المفيد للقصر والتخصيص، أي أعدت لهم لا غيرهم، وهم في عذاب مقيم لا ينقطع (لا يقضي عليهم فيموتوا أي لا يستريحون من العذاب بالموت،(ولا يخفف عنهم من عذابها) هكذا لا يخفف عنهم بعض هذا العذاب أو شيء من جنسه وهذا جزاء كل كفور، بصيغة المبالغة (كفور) أي مبالغ في الكفر والجحود. ثم يصف حالهم (وهم يصطرخون فيها) بتقديم المسند إليه (هم) على الخبر الفعلي (يصطرخون) ليفيد التقوية والتوكيد،أو القصر على المبالغة، كأنهم لا غيرهم يصطرخون.

ويتواصل السياق على تقدير قول محذوف، مع ياء النداء أي يصرخون يقولون يا ربنا، لكن المقام مقام ضيق وعذاب يستدعي الحذف فضيق النفوس يستدعي ضيق الكلام.

ثم الأمر للدعاء (أخرجنا) ، (وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به، والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبون أنه صاح والآن تحقق لهم خلافه) [١]

ثم الآية الثانية امتداد لهذه الصورة المؤلمة الكاشفة عن نكالهم وعذابهم، ليسأل هؤلاء سؤال توبيخ وتقريع : (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) ثم يأتي الأمر للإهانة والتأنيب فذوقوا فما للظالمين من نصير)

هذا بعض ما يقال في هاتين الآيتين الكريمتين،أردت أن أبين به قوة السياق الذي جاءت فيه الكلمة التي نقصدها بالدراسة هنا، وهي :

(يصطرخون)

---

[١] تفسير البيضاوي بحاشية زاد:٧/٤٠.

لنرى كيف قوي لفظها لقوة معناه لتؤدي دورها في التصوير والتشخيص لصراخ هؤلاء المعذبين في نار جهنم وقد انبعثت القوة اللفظية لهذه الكلمة من تاء الافتعال، فالاصطراخ فيه افتعال وجهد ومشقة وشدة صراخ،وهذا حالهم في هذا العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم (ولا يخفف عنهم من عذابها) وهذا لا يكون في الصراخ مجردا من زيادة تاء الافتعال.وإذا عرفنا أن الصراخ مجردا من تاء الافتعال هو شدة الصياح تبين لنا ما يحمله الاصطراخ بتاء الافتعال من القوة والشدة والمبالغة.

ففي لسان العرب (الصَّرْخَةُ: الصَّيْحَةُ الشديدة عند الفزع أو المصيبة، وقيل الصراخ الصوت الشديد..... والصارخ والصريخ المستغيث والاصطراخ :التصارخ افتعال، والتصرّخ : تكلف الصراخ) [1]وأصل اصطرخ، اصترخ بالتاء (أبدلت التاء طاء للمناسبة بين الصاد والطاء لأنهما حرفا إطباق وحرفا استعلاء) [2]وهذا الإبدال لتاء الافتعال أكسب الكلمة قوة لفظية وحدة صوتية زائدة ثم صفير الصاد ينغم لهذه القوة ويحكي صراخهم وصياحهم وعلو صوتهم في نار جهنم.

هذه القوة اللفظية تحكي القوة المعنوية فالكلمة تدل على قوة الصراخ الدال على قوة العذاب وشدته، فيا لله على هؤلاء الذين لا يسعفهم الصراخ، ولا يبدد آهات قلوبهم، ولا ينقل مأساة نفوسهم وأنات صدورهم !! وإنما هم في حاجة إلى جهد أكبر وافتعال أشد يعكس تلك المعناة، التي لا يجدون عنها محيصا،لا بالموت،ولا بالتخفيف، أي شئ يلوذون به إلا شدة الصراخ والصياح وهو المعبر عنه هنا بـ(يصطرخون).

---

[1] لسان العرب: (صرخ).

[2] زادة على البيضاوي:٧/٤٠.

الدكتور شادي

يبين الدكتور شادي أن (يصطرخون) بجرسها تحكى صراخا قويا شديدا يدل على جهد وتعب لا يكون في يصرخون، قال :(فإن لفظ(يصطرخون) يحكي بجرسه صراخا غليظا مختلطا آتيا من نواح مختلفة منبعثا من حناجر مكتظة، وهذا يصور ألم العذاب الذي يكتوون به، ولعلنا ندرك مدخل صفات الحروف في جرس الكلمة بالوقوف على الفرق بين صرخ واصطرخ ،ولماذا عبر القرآن بالثانية دون الأولى، ولا تجد فرقا في المعاجم بين الصراخ والاصطراخ فكلاهما للاستغاثة بصوت مرتفع، بيد أن اصطرخ على وزن افتعل، وفي الافتعال تكلف يدل على جهد أكبر وتعب أشد من طول الصراخ، فالإحساس بالتعب نتيجة استمرار الصراخ تراه في اصطرخ، ولا نراه في صرخ، وذلك من زيادة الطاء في الأولى،وهو حرف قوي من صفاته الشدة،لأن مجرى الهواء ينغلق انغلاقا تاما عند النطق به، فتراه منفجرا من مخرجه،وتسمعه يحكي بقوته مع سائر حروف الكلمة صوت المستغيث المكظوم المختلط بأصوات أمثاله، ومن الملاحظ أن اصطرخ أثقل على السمع من صرخ، فالتعبير بـ(يصطرخون) على الرغم من ثقله، للدلالة على أن ما يصدر منهم إنما هي أصوات بشعة منكرة، ولا يمكن إغفال دور الجرس في الإشعار بكل هذا) [١]

وهذا كلام دقيق للغاية في هذا السياق الذي نحن فيه وقد أحسن الدكتور شادي الربط بين قوة المعنى وقوة الجرس، وبين دور القوة اللفظية والقوة المعنوية في أداء المراد في سياق وصف جانب من عذاب أهل النار

---

[١] البلاغة الصوتية : ٣٠، ٣١.

لكننا لسنا معه في قوله : (ولا تجد فرقا في المعاجم بين الصراخ والاصطراخ) ففيما ذكره صاحب لسان العرب الذي سبق أن بيناه رد صريح على كلامه .

هذا وبيان قوة هذه اللفظة (يصطرخون) ودلالتها على قوة الصراخ وشدته في هذا المقام، ذكره كثير من أئمة التفسير، وبينوا إيثار السياق لها وسر عدوله عن (يصرخون) بإسقاط تاء الافتعال. واليك ذلك :

١- الألوسي والسمين

يقول العلامة الألوسي : (وهم يصطرخون) فيها افتعال من الصراخ، وهو شدة الصياح والأصل يصترخون فأبدلت التاء طاء ويستعمل كثيرا في الاستغاثة لأن المستغيث يصيح غالبا)[١]

بين الألوسي،الافتعال وفسره بأنه شدة الصياح،وأنه يستعمل في الاستغاثة، مما يدل على أن شدة الصياح كانت استغاثة من العذاب.

أما العلامة السمين فيقول في إشارة موجزة ودالة :

(ويصطرخون: يفتعلون من الصراخ وهو شدة رفع الصوت فأبدلت التاء طاء لوقوعها بعد الصاد) بين بذلك قوة اللفظ وقوة المعنى وما جرى في الكلمة من إبدال.

٢- البيضاوي وزادة، وأبو السعود

يقول العلامة البيضاوي : (يستغيثون يفتعلون من الصراخ،وهو الصياح، استعمل في الاستغاثة لجهر المستغيث صوته)

---

[١] روح المعاني : ٣٧٢/١١.

ويعلق العلامة شيخ زادة على كلام البيضاوي بقوله :(قوله: يفتعلون من الصراخ) أصل يصطرخون : يصترخون أبدلت التاء طاء للمناسبة بين الصاد والطاء لأنهما حرفا إطباق وحرفا استعلاء، وحمل يصطرخون على المجاز حيث فسر بقوله : (يستغيثون) على طريق إطلاق المطلق على المقيد، فإن الصراخ كما ذكره رفع الصوت، أي بأي وجه كان واستعمل في رفع الصوت مطلقا والاستغاثة رفعه طلبا للغوث) [١]

(أكد شيخ زادة ما قاله البيضاوي وزاده إيضاحا، وبين سر الإبدال، وحمل يصطرخون على المجاز، فهو مطلق الصراخ ورفع الصوت، لكنه استعمل هنا في رفع الصوت طلبا للغوث.

أما العلامة أبو السعود فيقول في عبارة موجزة ودالة :

(والاصطراخ افتعال من الصراخ، استعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته) [٢]

---

[١] حاشية شيخ زادة على البيضاوي: ٧/٤٠.

[٢] تفسير ابي اسعود : ٧/١٥٤.

٣ـ ابن عاشور وسيد قطب

يقول ابن عاشور :(ويصطرخون) مبالغة في (يصرخون) لأنه افتعال من الصراخ وهو الصياح بشدة وجهد، فالاصطراخ مبالغة فيه، أي يصيحون من شدة ما نابهم) [١]

بين العلامة ابن عاشور أن الافتعال هنا أفاد المبالغة في الصراخ فهم يصيحو بشدة وجهد.

أما صاحب الظلال فيقول : (ثم هنحن أولاء يطرق أسماعنا صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء، متناوح من شتى الأرجاء إنه صوت المنبوذين في جهنم: (وهم يصطرخون فيها)

وجرس اللفظ نفسه يلقي في الحس هذه المعاني جميعا فلنتبين من ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول، إنه يقول : (ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل) إنه الإنابة والاعتراف والندم إذن، ولكن بعد فوات الأوان) [٢]

أحسن العلامة سيد قطب في بيان القوة اللفظية الماثلة في هذا الصوت الغليظ المحشرج بجرسه القوي الذي يحكي صوت المنبوذين في جهنم ثم بين أنه بقوته يحكي هذه المعاني أي أن قوة لفظه تحكي قوة معناه، ثم أشار أنهم يصطرخون قائلين (ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل) وذلك منهم اعتراف وندم، ولكن بعد فوات الأوان.

---

[١] التحرير والتنوير : ٣١٨/٢٢.

[٢] في ظلال القرآن :٢٩٤٥/٥.

٣ـ (اكتتبها)

قال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) الفرقان : ٤، ٥.

تعرض الآيتان الكريمتان طرفا من ادعاء مشركي مكة وتقولهم على النبي والقرآن معا، فكثيرا ما اتهموه بالسحر والكذب والكهانة. وهنا قالوا : (إن هذا إلا أفك افتراه) بأسلوب القصر والتخصيص، فالقرآن ليس إلا إفكا، افتراه النبي أي كذب اختلقه، وقد أعانه على ذلك الافتراء قوم آخرون (يعني اليهود، قاله مجاهد، وقال ابن عباس : المراد بقوله :(قوم آخرون) أبو فكيهة مولى بني الحضرمي، وعداس، وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب)[١]فجاء الرد قويا قويا صارما في ذيل الآية : (فقد جاءوا ظلما وزورا) إنه ظلم وادعاء منهم، وزور لا حقيقة له.

ثم تأتي الآية الثانية فتذكر دعوى ثانية (وقالوا أساطير الأولين) إلى القرآن أحاديث وأكاذيب الأولين (اكتتبها) أي طلب كتابتها أو افتعل كتابتها (فهي تملي عليه) أي تلقى عليه وتقرأ.

في هذا السياق الكاشف عن جانب من ادعاء الذين كفروا بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما جاء به تأتي هذه الكلمة (اكتتبها) على لسان الملفقين الافاكين هكذا قوية في لفظها بتاء الافتعال ، قوية بمعناها، لأنها

---

[١] تفسير القرطبي :٣/٤.

تعكس رغبتهم في الادعاء والتكذيب ، وذلك أن اكتتب أقوى من كتب لفظا ومعنى.

وقد طوّفت في كثير من معاجم اللغة فلم أجد ذكرا للقوة التي أضافتها تاء الافتعال، لتكون (اكتتب) أقوى من كتب،إلا أنهم ذكروا أن معنى اكتتب:طلب من غيره أن يكتب له كتابا في حاجة، وأن استكتبه الشئ تعني سأله أن يكتبه له)[1]

وأرى أن الافتعال في كلامهم مذكور ضمنا لأن من يسأل غيره أن يكتب له وهو يعرف الكتابة يجد في ذلك كلفة ومشقة وافتعالاً.

والآن نرى قوة هذه الكلمة عند علماء التفسير :

١- ابن عاشور والسمين

لم أجد في كلام كثير من المفسرين الذين طوفت في كتبهم كلاما يشفى الغلة، ويذهب الصدى حول ما أريده من بيان القوة اللفظية الدالة على القوة المعنوية لهذه الكلمة (اكتتبها) لم أجد في كلامهم . أقوى مما وجدته في كلام العلامة الطاهر ابن عاشور ـرحمة الله عليه ـوجل ما ذكروه يدور حول دلالة الكلمة على سؤال الكتابة من الغير، وإنها بمعنى استملاه أي طلب إملاءه.... الخ. كما ذكرنا في شان أصحاب المعاجم. **وهذا كلام العلامة ابن عاشور:**

---

[1] ينظر: لسان العرب، واساس البلاغة للزمخشري : والمصباح المنير للفيومي : (كتب).

(والاكتتاب افتعال من الكتابة، وصيغة الافتعال تدل على التكلف لحصول الفعل، أي حصوله من فاعل الفعل، فيفيد قوله: اكتتبها أنه تكلف أن يكتبها. ومعنى هذا التكلف أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما كان أميا كان إسناد الكتابة إليه إسنادا مجازيا فيؤول المعنى:أنه سأل من يكتبها له أي ينقلها، فكان إسناد الاكتتاب إليه إسنادا مجازيا لأنه سببه، والقرينة ما هو مقرر لدى الجميع من أنه أمي لا يكتب، ومن قوله : (فهي تملى عليه) لأنه لو اكتتبها لنفسه لكان يقرأها بنفسه. فالمعنى: استنسخها وهذا كله حكاية لكلام النضر بلفظه أو بمعناه، ومراد النضر بهذا الوصف ترويج بهتانه لأنه علم أن هذا الزور مكشوف قد لا يقبل عند الناس لعلمهم بأن النبي أمي فكيف يستمد قرآنه من كتب الأولين فهيأ لقبول ذلك أنه كتب له، فاتخذها عنده فهو يناولها لمن يحسن القراءة فيملى عليه ما يقصه بالقرآن) [١]

بهذا بين العلامة الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ سر التعبير بهذه الصيغة من واقع دلالتها اللفظية على الافتعال وبذل الجهد والمشقة، وذلك أن رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ كان أميا، وقد سأل غيره أن يكتبها له،وفي السؤال والطلب بيان للحاجة إلى الغير وفي ذلك جهد النفس وتكلفها.

أما العلامة السمين ـ رحمه الله ـ فيقول كلاما قريبا من كلام ابن عاشور،وهذا كلامه :(واكتتبها، الافتعال هنا يجوز أن يكون بمعنى آمر بكتابتها كافتصد واحتجم، إذا أمر بذلك ويجوز أن يكون بمعنى كتبها،وهو من جملة افترائهم عليه،لأنه ـ عليه السلام ـ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، ويكون كقولهم : استكبه واصطبه أي: سكبه وصبه والافتعال مشعر بالتكلف)[٢]

---

[١] التحرير والتنوير :٣٢٥/٨

[٢] الدر المصون:٤٥٥/٨

جميل ما ذكره العلامة السمين وواضح من أن الاكتتاب بمعنى أمر بكتابتها، ثم يوضح الدلالة البلاغية التي أضافتها تاء الافتعال فيقول : (والافتعال مشعر بالتكلف) وما كان له أن يقول بعد هذا البيان الدال على أن الافتعال في اللفظ دال على الافتعال في المعنى ـ ما كان له أن يقول ـ : أن اكتتب بمعنى كتب واستكب واصطب، بمعنى كتب وصب،لأنه لو كان ذلك كذلك فلِمَ العدول إلى صيغة الافتعال ؟!

الزمخشري والرازي

يقول العلامة الزمخشري ـ طيب الله ثراه ـ : (والمعنى : اكتتبها كاتب له، لأنه كان أميا لا يكتب بيده وذلك من تمام إعجازه..... فإن قلت:كيف قيل : (اكتتبها فهي تملى عليه) وإنما يقال : أمليت عليه فهو يكتبها قلت:فيه وجهان أحدهما : أراد اكتتابها أو طلبه فهي تملى عيه أو كتبت له وهو أمي فهي تملى عليه : أي تلقى عليه من كتابه يتحفظها، لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصوره الإلقاء على الكاتب) [1]

بين العلامة الزمخشري دلالة (اكتتبها) على الافتعال ضمنا وذلك لما شرح سر التقديم في (اكتتبها فهي تملى عليه) لأن الإملاء يسبق الكتابة،فيقال : أمليت عليه فهو يكتبها فأبان رحمه الله، أن التقديم كان لدالة (اكتتبها) على طلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتابتها فهي تملى عليه أي تلقى عليه من كتاب ليحفظها لأنه كان أميا، وفي هذا الطلب جهد وافتعال،هو ما أضافته القوة اللفظية بتاء الافتعال في تلكم الكلمة.

---

[1] الكشاف : ٣/٢٦٤.

أما الإمام العلامة الرازي ـ رحمة الله عليه ـ فيقول كلاما مختصرا وقريبا مما قاله العلامة الزمخشري، وفي طيه كذلك بيان دلالة : اكتتبها على الافتعال والطلب، قال :

(اكتتبها : انتسخها محمد من أهل الكتاب، يعني عامرا ويسارا وجبرا،ومعنى اكتتب ههنا، أمر أن يكتب له كما يقال : احتجم وافتصد، إذا أمر بذلك فهي تملى عليه أي تقرا عليه والمعنى أنها كتبت له وهو أمي فهي تلقى عيه من كتابه ليحفظها،لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب) [١]

ولسنا في حاجة إلى ذكر ما قاله أبو السعود والألوسي فكلامهما شبيه بهذا[٢]

الدكتور أبو موسى

وننهي الحديث في دلالة هذه الكلمة بقوتها اللفظية على قوتها المعنوية المتمخضة من تاء افتعال بكلام شيخنا الدكتور محمد أبو موسى ـ مد الله في عمره ـ فقد بين سياق الآيتين وما يحمله من قوة لفظية بأدوات التوكيد، وما دعا إلى لك من قوة القضية وأهميتها، وهي قضية القرآن وإثبات أنه من عند الله، وسعي العرب المكذبين له وللرسول إلى إبطاله، واليك كلامه بعد أن أثبت الآيتين السابقتين :

(وحاجة التعبير هنا إلى التوكيد واضحة لأنهم يدعون في القرآن ما ينكره عليهم الرسول والمؤمنون،ثم هم راغبون في رواج مقالتهم فيه، فلابد من توكيدها ليتقبلها من لا يعرف القرآن ونبيه ـ عليه السلام ـ من القبائل الأخرى،

---

[١] التفسير الكبير :٢٤/٤٣٣.

[٢] ينظر تفسير أبى السعود : ٦/٢٣٠، وروح المعاني: ٩/٤٢٥، ٤٢٦.

والتي كانت لا تزال تثق في قريش وكلمتها،وكانت مقالة قريش في القرآن تصاغ في أسلوب مؤكد.

انظر إلى قولهم : (إن هذا إلا إفك افتراه) وكيف بنيت العبارة هذا البناء الصلب من استعمال اسم الإشارة ومجيئها على أسلوب القصر، والإخبار عنه بأنه إفك..ثم إنهم كانوا يستشعرون بأن أساطير الأولين لم تكن من معارفهم الزائعة،ومن هنا احتاجوا إلى توكيدها،انظر إلى قولهم : اكتتبها، وما فيه من المعاناة،وهو واقع بدل، كتبها،كما تقول : استكب الماء، بدل سكبه ، واصطبه بدل صبه) [١]ونكتفي بهذه الشواهد في بيان قوة اللفظ لقوة المعنى بتاء الافتعال، لتكون هاديا إلى غيرها .

ولك ان تتأمل من ذلك في القرآن : يستمعون، بدل يسمعون واستمعوا بدل اسمعوا، في قوله تعالى: (وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) [٢] وقوله تعالى : (وإذا قرئ القران فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) [٣] وما يحمله الاستماع من عناية وقصد إلى السماع،فالذي يستمع يتعمد السماع وفي ذلك جهد وافتعال،وليس ذلك فيمن يسمع وكذلك : اصطبر وارتقب، بدل صبر ورقب،وما في الافتعال من مشقة الصبر والمراقبة وما يبذل في ذلك من جهد وعناء تدل عليه قوة هذين اللفظين بتاء الافتعال ذلك في قوله تعالى : (إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر) [٤]وما في ذلك من الشد من أزر

---

[١] خصائص التراكيب : ١٧٤،١٧٥

[٢] الاحقاف : ٢٩

[٣] الاعراف :٢٠٤

[٤] القمر :٢٧

نبي الله صالح كي يحتمل أذاهم،ولا يكفي في هذا المقام، ان يصبر ويراقب بل يصطبر ويرتقب . إلى غير ذلك .

المبحث الرابع

القوة بلام القسم ونون التوكيد

قد تستمد الكلمة قوتها اللفظية الدالة على قوتها المعنوية من التوكيد بلام القسم في أولها،ونون التوكيد الثقيلة في آخرها، فتبدو الكلمة قوية في مبناها ثقيلة في لفظها، وذلك لقوة معناها الذي اقتضاه المقام وتطلبه السياق، وذلك ذائع في القرآن الكريم في كثير من المواضع ، نستدل عليه ببعض الشواهد الهادية إلى قوة اللفظ لقوة المعنى.

١ـ الموضع الأول

قال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)

إبراهيم : ١٣، ١٤.

السياق الحكيم يحكي موقفا من مواقف التحدي والجحود والنكران،تحدي الكافرين المنكرين لدعوة الرسل، وبقدر هذا التحدي يكون الإصرار والعزم من ناحية الرسل لتبليغ رسالة الله دون تقصير أو تفريط، ولذلك جاء السياق مؤكدا في الجانبين، في مقالة الكافرين في الرد عليه وقد ذكر المفسرون ان المقصود بالكافرين هنا هم مشركو مكة،وبالرسل، رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجاء بصيغة الجمع لأن هذا ديدن المنكرين في كل زمان إنكار رسالة الرسل ، كما قال المكذبون لنبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا

معك من قريتنا أو لتعودونّ في متنا قال أو لو كنا كارهين) [١] ولأن رسول الله هو القائد الذي يمثل الجميع ورسالتة تهيمن وتحيط بكل الرسالات السابقة عليه.

نعم السياق هنا يبين عناد الكافرين وإصرارهم على إخراج الرسل، وطردهم ونفيهم،أو أن يصيروا إلى ملتهم ويحطبوا في حبال باطلهم وكفرهم، ويتضح هذا التحدي في قوة اللفظ،الذي ساقوه قويا مؤكدا ليؤكد عزمهم وإصرارهم وتحديهم، وهو ما نريد بيانه في هذا السياق فعلى لسان الكافرين:

(لنُخرجَنَّكم، أو لَتعودُنَّ)

لا ريب أن قوة اللفظ واضحة والثقل عند النطق ظاهر، والسبب في ذلك لام القسم ونون التوكيد الثقيلة التي تحكي ثقل التحدي والرغبة في الإخراج للرسل ونفيهم إلى مكان بعيد، وكذلك في الكلمة الثانية القوة اللفظية المنبثقة من هذا التوكيد،تحكي القوة المعنوية وهي رغبتهم في أن يصير الرسل من أتباعهم،إن هذا الثقل اللفظي يحكي العناء النفسي وبذل الجهد من جانب هؤلاء المنكرين المكذبين، إنه الغيظ الذي يأكل القلوب ويقطّع النفوس، فيبدو على اللسان في قوة الألفاظ وتوكيدها.

ولما كان هذا هو موقفهم من دعوة الرسل، وقد اشتد ذلك على الأنبياء،حتى ضاق الكثير بهم ذرعا،كان الرد من الله ـ عز وجل ـ ليربط على قلوبهم ويثبت أقدامهم ليجدوا العزاء في انتقام الله من الظالمين، والتمكين للرسل وأهل الحق الذين يخافون القيام بين يد الله

نعم جاء الرد قويا في مقابلة قوة كلام الكافرين:

---

[١] الاعراف :٨٨.

(فأوحى إليهم ربهم لنُهلِكَنَّ الظالمين ولنسكنَنَّكم الأرض من بعدهم)

(لنـهلكنِّ،ولنسكننَّكم)

قـوة اللفظـين هنـا بـلام القسـم ونـون التوكيـد،تحكي قـدرة الله القـاهرة الغالبة، التي لا طاقة لأحد بها، نعم .. ثقة الهيمنة التي تقضي الأمور بـ(كن) ليقـع القضـاء سـريعا دون مهلـة (فيكـون) قـوة اللفـظ (لـنهلكنَّ) تحكـي قـوة المعنى،أي شدة الإهلاك من ناحيـة، وتأكد وقوعه بالظالمين من ناحيـة أخرى ليكون ردا صارما وصارخا على قولهم :(لنخرجنكم)

ثم تأتي القوة الواضحة والثقل الفظي الواضح في : (لنسكننّكم)

هذه القوة تحكى لنا قوة التمكين في الأرض ، إنـه إسكان فيه سيطرة وغلبـة ونصر مؤزّر ، ولنا أن نتأمل هذه النونات الأربع في هذه اللفظة، منها ثلاثة متوالية، فيها نون التوكيد التي هي نونان أدغمتا في، وفي هذا الإدغام قوة يحكيها صوت الغنة عند القراءة ليعكس هذا الصوت القوي قوة المعنى ومدى التمكين لأهل الحق في الأرض لتكون هذه الكلمة: (لنسكننكم) في مقابلة (لتعودن) كما جاءت : (لنهلكن) في مقابلة (لنخرجنكم) وفي هذه الكلمة سبب آخر من أسباب القوة اللفظية، وهو طول الكلمة وتوالي حروفها فإنها مكونة من تسعة أحرف متواصلة وسنعرض لشواهد ذك في المبحث الخامس.

ولم أجد في كلام المفسرين ـ رحمهم الله ـ كلاما واضحا صريحا عن قوة اللفظ لقوة المعنى في هذه الكلمات، غير أنني وجدت ذلك ضمنا في كلام بعضهم حيث أبان أن اللام للقسم،والنون للتوكيد وفي هذا تقوية لهذه الكلمات يتطلبها المقام.

يقول العلامة القرطبي:

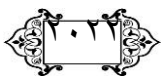

(قوله تعالى : (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا) اللام لام قسم، أي والله لنخرجنكم (أو لتعودن) أي حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا. وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده،ألا ترى إلى قوله: (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها إذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) [١]في ملتنا أي إلى ديننا) [٢]

بين القرطبي أسلوب القسم،أن هذا طريق المكذبين مع الرسل،ولم يزد على ذلك.

وهذا العلامة **السمين** يقول في (لنخرجنكم) :

(جواب قسم مقدر، كقوله (ولنصبرن)..... قوله : (لنهلكن) جواب قسم مضمر، وذلك القسم وجوابه فيه وجهان : أحدهما أنه على إضمار القول، أي قال : لنهلكن.

والثاني : أنه أجرى الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه) [٣]

أما العلامة **الطاهر بن عاشور**، فيذكر التوكيد بلام القسم،ونون التوكيد فيقو: (وتوكيد توعدهم بالإخراج بلام القسم ونون التوكيد ضراوة في الشر) و(أو) لأحد الشيئين، أقسموا على حصول أحد الأمرين لا محالة، أحدهما من فعل المقسمين، والآخر من فعل من خوطب بالقسم.... وتفريع جملة : (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين) على قول الذين كفروا لرسلهم لنخرجكم من أرضنا الخ.. تفريع على ما يقتضيه قول الذين كفروا من العزم

---

[١] الإسراء: ٧٦، ٧٧

[٢] تفسير القرطبي : ٩ /٣٤٨.

[٣] الدر المصون :٧٦/٧، ٧٧.

على إخراج الرسل من الأرض أي أوحى الله إلى الرسل ما يثبت به قلوبهم، وهو الوعد بإهلاك الظالمين، وجملة: (نهلكن الظالمين) بيان لجملة(أوحى) وإسكان الأرض : التمكن منها وتخويلها إياهم، كقوله : (وأورثكم أرضهم وديارهم) [1]

والخطاب في (لنسكننكم) للرسل الذين آمنوا بهم، فلا يقتضي أن يسكن الرسول بأرض عدوه بل يكفي أن يكون له السلطان عليها، وأن يسكنها المؤمنون، كما مكن الله لرسوله مكة وأرض الحجاز وأسكنها الذين آمنوا بعد فتحها) [2]

بين العلامة ابن عاشور بلاغة التوكيد، وكيف قوى المعنى بعبارته الواضحة المعبرة :(وتوكيد توعدهم بالإخراج بلام القسم ونون التوكيد ضراوة في الشر) فالقوة بالتوكيد أبانت عن قوة المعنى، وهو ضراوة الشر وشدة العداء، ثم بين أن في قولهم : (لنخرجنكم) بيان لما يقتضيه قول الذين كفروا من العزم على إخراج الرسل من الأرض، ثم بين بلاغة التوكيد والقوة اللفظية في (لنسكننكم) ودلالتها على قوة لمعنى بقوله : (وإسكان الأرض :التمكن منها وتخويلها إياهم) ثم بين دلالة ذلك على السيطرة والسلطان والتمكن.وفيما قاله دلالة كافية على ذلك.

٢ـ الموضع الثاني

قال تعالى : (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا) مريم:٦٨ – ٧٠.

---

[1] الاحزاب :٢٧

[2] التحرير والتنوير :٣/٢٠٦، ٢٠٧.

إنه سياق يفور بغضب الله ـ عز وعلا ـ على هؤلاء المشركين، ويحفل بالعزاء والمواساة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (والقسم بالرب مضافا إلى ضمير المخاطب وهو النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إدماج لتشريف قدره) (١)

هكذا بدأت الآية الأولى بالقسم وهو من أساليب التقوية والتوكيد،يقسم ربنا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سيحشر هؤلاء المشركين ويحضرهم حول جهنم في خضوع ومذلة ومهانة : (جثيا) (يقال جثا يجثو إذا برك على ركبتيه وهي هيئة الخاضع الذليل) (ثم لننزعن من كل شيعة) وهذه حالة أخرى من الرعب أشد من اللتين قبلها، وهي حالة تمييزهم للإلقاء في دركات الجحيم على حسب مراتب علوّهم في الكفر والنزع إخراج شئ من غيره،ومنه نزع الماء من البئر..... والمعنى لنميزن من كل فرقة تجمعها محلة خاصة من دين الضلال من هو مَن تلك الشيعة أشد عصيانا لله وتجبرا عليه، وهذا تهديد لعظماء المشركين مثل أبي جهل وأمية بن خلف ونظرائهم ولما كان هذا النزع والتمييز مجملا، فقد يزعم كل فريق أن غيره أشد عصيانا، أعلم الله تعالى أنه يعلم من هو أولى منهم بمقدار صلة النار فإنها دركات متفاوته(٢)

هكذا تصف الآيتان الكريمتان جانبا من فعل الله تعالى بهؤلاء المشركين المنكرين يوم القيامة،وتكشفان جانبا من غضب الله وانتقامه منهم وغلبته وسلطانه عليهم في الآخرة وبدأت الآية الأولى بالقسم كما أشرنا، لتكون البداية بهذه القوية اللفظية.

---

(١).التحرير والتنوير : ١٤٦/٦.

(٢) السابق : ١٤٨/١٦.

وفي هذا السياق القوي تأتي الكلمات القوية لتعبر عن المعاني القوية، والكلمات التي نريدها هنا هي : (لنحشرنّهم، لنحضرنّهم، لننزعنّ)

قويت الكلمات الثلاثة بلام القسم في أولها، ونون التوكيد الثقيلة في آخرها.

يا لله على هذه القوة الخارقة المصورة لجبروت قدرة الله وعظيم سلطانه والتي تسلب هؤلاء كل قوة، وكل سيطرة على أنفسهم ، هذه القدرة التي تحشرهم ولا يستطيعون لها دفعا ظاهرة وبينه في قوة اللفظ وتوكيده : (لنحشرنهم) هذا الثقل اللفظي الذي أداه التوكيد باللام والنون، يحكي شدة الحشر وكثرة التزاحم مع السيطرة عليهم في أرض المحشر.

(وعطف الشياطين على ضمير المشركين لقصد تحقيرهم بأنهم يحشرون مع أحقر جنس وأفسده، وللإشارة إلى ان الشياطين هم سبب ضلالهم الموجب لهم هذه الحالة، فحشرهم مع الشياطين إنذارهم بان مصيرهم هو مصير الشياطين وهو محقق عند الناس) [1]

انه حشر مهين بصحبة الشياطين !!

ثم تأتي الكلمة الثانية لتعانق سابقتها بقوتها وشدتها (لنحضرنهم) إنها قوة لفظية،تدل على قوة معنوية،وهي تلك القدرة المعجزة على إحضار هؤلاء مرغمين مغلوبين مغلولين : (حول جهنم جثيا)

(وهذا إعداد آخر للتقريب من العذاب، فهو إنذار على إنذار، وتدرج في إلقاء الرعب في قلوبهم) [2]

---

[1] السابق : ١٤٧/١٦

[2] السابق الجزء والصفحة

وبعد بيان قوة الحشر، في قوله(لنحشرنهم) وقوة القدرة على الإحضار في قولهم(لنحضرنهم) تأتي الكلمة الثالثة لتعرض بقوة لفظها قوة معناه المكمل للقوة والهيمنة والقهر الإلهي لهؤلاء المشركين ذلك في كلمة : (لننزعن)

والنزع فيه قوة وشدة وقهر، ويزيده قوة وشدة التوكيد بلام القسم، ونون التوكيد، ثم نغم هذه النون الناجم عن الغنة ثم تكرار النون أربع مرات اثنان بعد لام القسم، واثنان هما نون التوكيد المشددة (الثقيلة) التي ينطق ثقلها بشدة النزع لهؤلاء المشركين المتكبرين الذين مُيّزوا من بين المشركين تنكيلا لهم وإمعانا في إهانتهم.

هكذا تأتي اللكمات الثلاثة : بهذه القوة اللفظية لتكشف عن القوة المعنوية لتؤدي في هذا السياق القوي الشديد دورها الذي لا يقوم به غيرها، وتساير بشدتها في لفظها ومعناها شدة هذا الموقف المخيف من مواقف يوم القيامة.

٣ـ الموضع الثالث

قال تعالى :(إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا)

النساء : ١١٧ ـ ١١٩.

سبقت الآيات بآية كريمة من المتشابه يرتبط بها سياق هذه الآيات ولا مجال للكلام فيها في هذا المقام إذ إنها تحتاج إلى بيان طويل يخرج هذه الراسة عن سياقها،هي قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) [١]

ولما كان آخر هذه الآية هي ذكر الشرك بالله،وانه ضلال بعيد بدأت الآية التي بعدها بمواصلة الحديث عن شرك المشركين (إن يدعون من دونه إلا إناثا وان يدعون إلا شيطانا مريدا) والإناث هي الأصنام (اللات والعزى ومناة) يجعلونها إناثا ويقولون أنثى بني فلان، ويقال الإناث الملائكة لأنهم قالوا :الملائكة بنات الله،ويعطف على هذا عبادتهم للشيطان وطاعتهم له وهو ملعون مطرود من رحمة الله، وقد عهد على نفسه ان يضل جبلا كثيرا من الناس هم نصيبه المفروض لأنهم يطيعونه ويتبعون خطواته[٢]

وقبل أن ننظر إلى الكلمات التي هي موضع دراستنا هنا والتي قويت بالتوكيد بلام القسم،ونون التوكيد لقوة المعنى الذي تؤديه،ننظر إلى قوة هذا السياق الذي جاءت فيه لنتبين دلالتها البلاغية متسقة مع السياق متلائمة مع المقام.

(إن يدعون من دونه إلا إناثا) هكذا بأسلوب القصر والتخصيص، فهؤلاء المشركون،لا يدعون من دون الله إلا آلة لا تنفع ولا تضر هي الأصنام أو الملائكة،واستخدم في النفي (إن) وفي ذلك مزيد تأكيد للنفي، ويعطف عبارة أخرى مستخدما القصر بالنفي والاستثناء كذلك (وإن يدعون إلا شيطانا مريدا) وأسلوب القصر من أساليب التقوية والتوكيد وتنكير شيطان، ووصفه بـ(مريد)

---

[١] النساء :١١٦.

[٢] يراجع الجامع لأحكام القران للقرطبي : ٣٨٩/٥.

فيه كذلك تقوية وتوكيد أي شيطان عات متمرد،استوجب لعنة الله (لعنه الله) هكذا بالجملة الخبرية لفظا الإنشائية معنى إذ هي دعاء عليه بالطرد من رحمة الله، وفي الدعاء باللعنة إظهار لغضب الله عليه.

السياق إذن ذو نبرة توكيدية عالية،سياق حديث عن المشركين الذين ارتكبوا أكبر الكبائر فاستثاروا غضب الله عليهم، ويستطرد النص القرآني الحكيم في الحديث عن الشيطان الذي اتبعه هؤلاء من دون الله فيقول على لسانه: (وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فيبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) والكلمات التي قوي لفظها لقوة معناها هنا جلية واضحة ناطقة بالشدة والقوة ولام القسم ونون التوكيد في هذه الكلمات تحكي جلبة الشيطان وإصراره وغيظه وحقده وانقطاعه لإضلاله طائفة من الناس بشتى طرق الإضلال والغواية ، شدة رغبة الشيطان في إنفاذ غرضه وتحقيق هدفه وإمضاء عهده إذ طلب من الله أن ينظره لتحقيق ذلك ـ شدة رغبته في ذلك واضحة في شدة كلماته هذه :

(لأتخذنَّ، لأضلنَّهم، لأمنِّيَنَّهم، لآمرنَّهم، فليبتكنَّ،لآمرنّهم، ليغيرنَّ)

سبعة أفعال مؤكدة بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة، الشيطان عازم بكل ما أوتي من مقومات، أن يتخذ طائفة من عباد الله هم نصيبه المفروض الذي لن يترخص فيه لذلك قال مؤكدا : (لأتخذن)

ومُصرّ على الإضلال لهم فأكد قائلا (لأضلنهم) وعلى خديعتهم بالأماني الكاذبة التي لن تتحقق، فقال مؤكدا (لأمنينهم) وواثق في انقياد كثير منهم وتبعيتهم له ورسفهم في قيوده،وحطبهم في حباله، فأكد أنه سيأمرهم فقال (لآمرنهم) وبين أنهم سيطيعون أمره، ويقضون طلبه،فقال : (فليبتكن) أي يقطعن أويشققن آذان الأنعام:

(وقد ذكر هنا شيئا مما يأمر به الشيطان مما يخص أحوال العرب، إذ كانوا يقطعون آذان الأنعام التي يجعلونها لطواغيتهم، علامة على أنها محررة للأصنام) [١]

ولثقة الشيطان باتباع هؤلاء لأمره وانسياقهم إلى مستنقعه كرر ذكر أمره لهم فقال :

(ولآمرنهم) وفي ذلك دلالة على أن أمره سيتكرر بتكرر ما يأمرهم به من الضلال والغواية وأفعال المعاصي، لأن المأمور به أولا هو تقطيع آذان الأنعام،والمأمور به ثانيا هو تبديل وتغيير خلق الله : (فليغيرن) هو واثق من تنفيذ أمره فأكد فعل التغيير، أي أنه سيقع منهم لا محالة. وقوله : (لآمرنهم فليغيرن خلق الله) تعريض بما كانت تفعله أهل الجاهلية من تغيير خلق الله لدواع سخيفة، فمن ذلك ما يرجع إلى شرائع الأصنام، مثل فقء عين الحامي، وهو البعير الذي حمى ظهره من الركوب لكثرة ما أنسل، ويسيّب للطواغيت ومنه ما يرجع إلى أغراض ذميمة كالوشم إذا أردوا به التزيين، وهو تشويه وكذلك وسم الوجوه بالنار) [٢]

ظاهر جلي ما تحمله هذه الألفاظ من قوة لفظية متدفقة متتابعة في السبع كلمات، تحكي من واقع ما أرينا في سياقها قوة المعاني التي جاء لتأديتها.

---

[١] التحرير والتنوير لابن عاشور: ٥/٢٠٥.

[٢] السابق الجزء والصفحة.

والقوة اللفظية الدالة على القوة المعنوية انبثقت من لامات القسم ونونات التوكيد،والنونات مع هذه اللامات لازمة للدلالة على الاستقبال الدال على عزم الشيطان على ذلك في المستقبل الممتد إلى يوم يبعثون.

يقول العلامة النحاس ـ رحمة الله عليه ـ : (هذه لامات قسم والنون لازمة لها،لأنه لا يقسم إلا على المستقبل) [١]

وهذه الكلمات القوية بلام القسم ونون التوكيد على لسان الشيطان اللعين متكررة في القران الكريم،اكتفينا بهذا المواضع للدلالة عليها.

ومنها قوله تعالى : (قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) [٢] (لأقعدن، لآتينهم)

وقوله تعالى : (قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين) [٣]

ومنها قوله تعالى : (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين) [٤] هكذا أكد بالقسم بعزة الله،ثم أكد فعل الإغواء بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة (لأغوينهم).

---

[١] اعراب القران :٢٣٩/١

[٢] الاعراف: ١٦، ١٧

[٣] الحجر : ٣٩

[٤] ص : ٨٢.

المبحث الخامس

القوة بطول الكلمة وتتابع حروفها

ونقصد بهذا مجئ بعد الكلمات القرآنية طويلة بكثرة حروفها وتتابعها تتابعا يورثها ثقلا لفظيا يكد اللسان ويتعسر النطق بها.

وقد أشرت في المقدمة إلى أن هذا اللون من الثقل الذي عده متاخرو البلاغيين عيبا من العيوب المخلة بفصاحة الكلمة هو أقوى أسباب فصاحتها وبلاغتها حيث يأتي هذا الثقل اللفظي دالا على الثقل المعنوي، الذي سيقت الكلمة له،وهذا ضرب من رعاية المقام والمطابقة لمقتضى الحال يتضح من واقع السياق الذي جاءت فيه، إذ الكلمات في الجمل لا تنفصم عنها ولا تبتر من سياقها. وذلك يبدو في أعلى كلام وأشرفه الكلام المعجز وهذا ما نريد بيانه هنا، في سياق قوة اللفظ لقوة المعنى والدلالة البلاغية التي يقضي بها السياق في بيان ذلك.

١ـ (فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ)

قال تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

الحجر : ٢١ ـ ٢٣.

بأسلوب القصر الذي طريقه النفي والاستثناء بدأت هذه الآيات الكريمات وليزداد النفي توكيدا وتقوية جاء بـ(إن) ثم مجئ النكرة (شئ) في سياق النفي مفيد للعموم، أي شئ صغير أو كبير عظيم أو حقير، ودخول

(من) عى (شئ) يضاعف من تثبيت هذا المعنى ، كل ذك لتفيد هذه العبارة أنه لا يوجد شئ إلا عند الله ـ عز وجل ـ خزائنه ثم يعطف على هذه العبارة عبارة ثانية بأسلوب القصر كذلك : (وما ننزله إلا بقدر معلوم) هكذا بحسب ما يتراءى للقدرة الإلهية، ثم يعرض لنا صورة تبين شيئا من الأشياء التي يملك ربنا خزاءنها،وكيف ينزلها بالقدر المعلوم:

(وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه)

فقد أرسل الله الرياح تسوق السحاب إلى حيث يريد الله فينزل إلى الأرض الميتة فيحييها وتدب الحياة في كل شئ وعلى راس الجميع الإنسان الذي خلقت الأشياء كلها من أجله فيسقيه بقدرته من هذا الماء من غير حول له ولا قوة. وذلك أن : (معنى لواقح : حوامل، لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع قال الأزهري : وجعل الريح لاقحا لأنها تحمل السحاب، أي تقلّه وتصرفه ثم تمريه فتستدره ثم تنزله) [1]

وتأتي هذه العبارة (وما أنتم له بخازنين) تأكد على قدرة الله على امتلاك خزائنه، وأن الإنسان لا يمتلك ذلك ولا يستطيع توفيره حيث يريد ليزعن لله ويسجد لقدرته لأن أصل حياته وحياة كل شئ بالماء، وهذا شئ واحد من الأشياء التي يمتلك ربنا خزائنها، ودخول النفي على (أنتم) يعني أن غيركم ـ وهو الله سبحانه ـ الذي يخزنه،وتقديم الجار والمجرور (له) ولم يقل وما انتم بخازنين له، للعناية بأمر هذا المختزن وهو الماء، وزيادة الباء (بخازنين) لتزيد من التقوية والتوكيد في سلب قدرتهم على اختزانه.

ثم قال سبحانه: (وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون)

---

[1] الجامع لأحكام القران للقرطبي :١٠/١٥.

لما ذكر إنزال المطر الذي يسبق إلى الأذهان عند ذكره إحياء الأرض به ناسب ذلكً أن يذكر بعده جنس الإحياء كله، لما فيه من غرض الاستدلال على الغافلين عن الوجدانية، ولأن فيه دليلا على أمكان البعث والمقصود ذكر الإحياء وذكر الإماتة للتكميل...، وضمير(نحن) ضمير فصل دخلت عيه لام الابتداء وأكد الخبر بـ(إنّ) واللام وضمير الفصل لتحقيقه وتنزيلا للمخاطبين في إشراكهم منزلة المنكرين للإحياء والإماتة وجملة(ونحن الوارثون) عطف على جملة.(وإنا نحن نحيي ونميت) ومعنى الإرث هنا البقاء بعد الموجودات تشبيها للبقاء بالإرث وهو أخذ ما يتركه الميت من أرض وغيرها) [١]

بعد هذا البيان الموجز لسياق الآيات الكريمات، ننظر إلى اللفظة التي هي موضع عنايتنا فيه وهو سياق كما رأينا حافل بأدوات التقوية والتوكيد للدلالة على جانب من قدرة الله الباهرة الغالبة القاهرة . وهذه اللفظة هي : ً

(فأسقيناكموه)

لا ريب أن هذه الكلمة قوية المبنى شديدة ثقيلة عى النطق وهذه القوة اللفظية منبثقة من طولها وتوالي حروفها فهي مكونة من أحد عشر حرفا، وهذه الدلالة اللفظية تخفي وراءها قوة معنوية تتناغم مع هذا السياق القوي في مبناه ومعناه، قوي في مبناه لما رأينا من تزاحم المؤكدات فيه،وقوي في معناه لأنه يعرض جانبا من قدرة الله تعالى على امتلاك خزائن كل شئ،ومنها الماء الذي هو أصل الحياة لكل شئ.

قلت : إن هذه الكلمة (فاسقيناكموه) قوية في لفظها هكذا كما رأينا ولك أن تكررها وتجريها على لسانك لتلمس هذا الثقل وتلك القوة ، أما قوتها المعنوية

---

[١] التحرير والتنوير لابن عاشور : ٣٩/١٤.

فلأنها تدل على أن عملية الإسقاء هذه ليست هينة،وإنما هي قضية كبيرة لا يستطيعها إلا الله وحده، فالماء الذي أسقانا الله إياه من غير حول منا ولا قوة،مسبوق بمراحل وخطوات حتى وصل إلى أفواهنا لنحيا به، هي قصة الرياح اللواقح التي أرسلها الله إلى السحاب فأجراها بقدرته وأنزلها بقدر معلوم فيه حفاظ على انتشار الحياة على الأرض دون موت من الجفاف، أو موت بالغرق إن هي زادت فوق القدر المعلوم الذي فيه حاجة الإنسان وغيره.

القوة اللفظية في هذه اللفظة تحكي هذه القوة الإلهية التي تعجز قوى البشر، إذ لا يستطيعون إيجاد الماء الذي يشربونه ثم إنها بقوتها تسلب كل قوة للإنسان في إيجاد الماء لنفسه،وتنفي حتى قدرته في إسقاء نفسه (فالهمزة فيه للجعل، وكثر إطلاق السقي بمعنى سقى) [١] أي جعلناه ولا دور لكم في ذلك.

قوة هذه الكلمة بلفظها ومعناه دليل دامغ على فصاحتها ودورها البلاغي الذي لا يقوم به غيرها في هذا السياق القرآني الحكيم،وكيف أن قصة الماء الذي قال الله فيه (وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون) [٢] قصة عظيمة بعظم موجدها ومجريها،ليقف الإنسان أمام القوة اللفظية والمعنوية لهذه الكلمة مطأطأ الرأس خاسئ البصر فقد تحدى الله البشرية جمعاء بهذه القوة المطروحة في ذلك السؤال التعجيزي المعجز إلى يوم القيامة: (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين)؟![٣]

---

[١] التحرير والتنوير : ٣٨/١٤

[٢] الأنبياء : ٣٠

[٣] الملك: ٣٠

٢- أنُلْزِمُكُمُوهَا

قال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

هود:٢٥ – ٢٨.

السياق يحكي جانبا من العناء والإجهاد الدائب المرير الطويل لنبي الله نوح عليه السلام مع قومه، وكيف عرض عيهم مهمته (إني لكم نذير مبين) مؤكدا كلامه بـ(إنّ) واسمية الجملة، وتقديم (لكم) وتنكير (نذير مبين) وكل ما يطلبه منهم : (أن لا تعبدوا إلا الله) بأسلوب القصر والتخصيص الدال على إخلاص (العبودية لله وحده لا شريك له) مستدرا عطفهم مستميلا قلوبهم: (إني أخاف عيكم عذاب يوم أليم) بهذه العبارة القوية بالتوكيد كما نرى، لكن العناد والصلف والتكذيب فاح من كلام الكافرين من قوله : (ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) فاعترضوا بهذا الأسلوب القوي أسلوب القصر اعتراضا على بشريته، كما أنكروا اتباع الأراذل والفقراء والضعفاء له،وذلك مما يؤكد صدقه ورسالته لا العكس، وأنكروا أن يكون له عليهم فضل، واتهموه بالتكذيب.

ويأتي الرد على هذه التهم الباطلة الزائفة في قوله مناديا قومه بالإضافة إلى ياء المتكلم التي توحي باستعطافهم والتقرب إليهم (يا قومي) ليقولهم أنا منكم وأنتم مني (أرأيتم إن كنت على بينة من ربي) من معرفة ذات الله وصفاته وما يجب وما يمتنع وما يجوز عليه ثم إنه تعالى (أتاني رحمة من عنده) والمراد بتلك الرحمة إما النبوة وإما المعجزة الدالة على النبوة(فعميت عليكم) أي صارت مظنة مشتبهة ملتبسة في عقلوكم، فهل أقدر على ان أجعلكم بحيث تصلون إلى معرفتها شئتم أم أبيتم ؟ والمراد إني لا أقدر على ذلك البتة)[1]

في هذا السياق الفواح بالعناء المحشود بالجدل بين نبي الله نوح وقومه تأتي العبارة الكريمة التي تحوي اللفظة التي نريد بيناها هنا : (أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)

والاستفهام إنكاري أي ما كان لنا ذلك لأن الله لم يأمره بإكراههم إعراضا عن العناية بهم، فترك أمرهم إلى الله، وذلك أشد في توقع العقاب العظيم) [2] اللفظة القوية في لفظها لقوة معناه في هذا السياق الذي أوضحناه بإيجاز هي: **(أنلزمكموها)**

ثقلت هذه الكلمة على اللسان لكثرة حروفها وتواليها وتوالي الحركات فيها حتى يجد الناطق بها عناء يكد اللسان.

يقول العلامة الرازي ـ رحمه الله ـ : (أنلزمكموها، في ثلاث ضمائر : ضمير المتكلم، وضمير الغائب، وضمير المخاطب ، وأجاز الفراء إسكان الميم الأولى،

---

[1] التفسير الكبير للرازي : ٣٣٨/١٧.

[2] التحرير والتنوير لابن عاشور : ٥٣/١٢.

وروي ذلك عن أبي عمرو، قال : وذلك أن الحركات توالت فسكنت الميم، وهي أيضا مرفوعة وقبلها كسرة، والحركة التي بعدها ضمة ثقيلة، قال الزجاج جميع النحويين البصريين لا يجيزون إسكان حرف الإعراب إلا في ضرورة الشعر) [١] **في هذا النص الذي كره العلامة الرازي، ما يدل على ثقل هذه الكلمة (أنلزمكموها) وذلك كثرة الضمائر ففيها ثلاثة ضمائر : متكلم، ومخاطب وغائب، وبسبب توالي الحركات أيضا كما رأينا ذلك في قوله : (والحركة التي بعدها ضمة ثقيلة) القوة اللفظية في هذه الفظة واضحة كما رأينا.**

أما القوة المعنوية التي من أجلها قوي اللفظ فهي ما تحمله هذه الكلمة من ثقل الإلزام لقوم أنكروا دعوة نبي الله نوح وعُمّيت عليهم الحقيقة ولُبّست، بقوة (عُمِّيت) بالتضعيف والبناء للمجهول، وما في ذلك من دلالة على شدة التلبيس عليهم مما يتراحم ويتآخى مع قوة الإلزام كذلك.

ولا ريب أن إلزام النفس الكارهة المنكرة فيه من العناء والثقل ما فيه، وذلك واضح في قوله: (وأنتم لها كارهون) كما تبين هذه الكلمة عناء نبي الله نوح مع هؤلاء المنكرين الذين يتطلب إلزامهم بمنهج الله ورسالة نبيه جهادا مريرا، هو ما لقيه نبي الله نوح على امتداد ألف إلا خمسين عاما ولم يؤمن منهم إلا قليل. (وعن قتادة : والله لو استطاع نبي الله نوح لازمها، ولكنه م يقدر عليه) [٢]

ويعرض استأذنا الدكتور محمد أبو موسى للقوة اللفظية المنبثقة من القوة المعنوية في هذه الكلمة، في سياق حديثه عن الفصاحة وما يلحق الكلمة من عيوب تخل بفصاحتها وأن البلاغيين جعلوا الثقل من هذه العيوب

---

[١] مفاتيح الغيب : ٣٣٨/١٧.

[٢] التفسير الكبير : ٣٣٨/١٧.

وينتقد هذا المقياس عن البلاغين فيقول : (وينبغي أن يلاحظ أن استعمال هذا المقياس يحتاج إلى وعي وذوق لأن هناك كلمات ثقيلة على اللسان، ولكن ثقلها من أهم مظاهر فصاحتها من حيث ان هذا الثقل يصور معناها بحق وتأمل كلمة (أنلزمكموها) وما فيها من صعوبة في النطق تحكي صعوبة الإلزام بالآيات، وهم لها كارهون،وانظر كلمة (فعُمّيت) وما فيها من الإدغام والمجهول،وكيف تصفان معنى التعمية والإلباس)[1]

بعبارة موجزة ودالة يبين العلامة أبو موسى قوة اللفظ لقوة المعنى،فصعوبة النطق بها تحكي صعوبة الإلزام، وهذا فيما بين من أهم مظاهر فصاحتها، وبين كذلك أن القوة اللفظية والمعنوية في (عميت) تتعاضد مع قوة هذه الكلمة في هذا السياق.

وقد عرض لهذه الكلمة مبنيا قوتها لقوة معناه الدكتور محمد إبراهيم شادي كذلك فبعد عرضه هذه الآية قال :

(فنحسن أن كلمة (أنلزمكموها) تصور جو الإكراه، ومعناها المباشر لا يكون منا إلزام، وتصويرها بجرسها وأدائها جو الإكراه هو الباعث على تخيرها على صيغة الفعل المضارع متصلا بثلاثة ضمائر، وهذا وإن أدى إلى جهد في نطقها، فان هذا الجهد مطلوب لسيتشعر من ينطقها مدى ما يبذل من جهد في الإلزام والإكراه الذي ينكره نبي الله نوح ومعنى هذا أن ثقل الكلمة على اللسان ليس مما يخل بفصاحتها على الإطلاق كما ذهب علماء البلاغة لأن هذا الثقل يكون مطلوبا إذا جسد المعنى المطلوب، وصوره وا

---

[1] خصائص التراكيب : ٣٣، ٣٤.

أشعر الإحساس به) [١]

ولا نجد بعد هذا الكلام كلاما نقوله في الدلالة البلاغية لقوة هذه الكلمة القرآنية في لفظها لقوة معناها ومدى تناغمها مع السياق الذي وردت فيه.

٣- (فسيكفيكهم)

قال تعالى : (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

البقرة : ١٣٧.

جاءت الآية الكريمة في أعقاب آية ذكرت الإيمان المطلوب من المؤمنين برسالة الإسلام، وهو أن يؤمنوا بما أنزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أنزل على الأنبياء جميعهم من قبله دون تفريق أو تفضيل لأحد منهم ولا يكونوا كأهل الكتاب يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض. ثم يأتي الخطاب في هذه الآية لمحمد ـ صلى الله عيه وسلم ـ وأمته. المعنى : فان آمنوا مثل إيمانكم وصدقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا ..... أي فان آمنوا بنبيكم وبعامة الأنبياء ولم يفرقوا بينهم كما لم تفرقوا فقد اهتدوا، وإن أبوا إلا التفريق فهم الناكبون عن الدين إلى الشقاق) [٢] أي إلى النزاع والمخالفة والمجادلة والعداء، أو إلى مشقة وعنت وتعب وسيكفي الله رسوله عدوه (فكان هذا وعدا من الله تعالى لنبيه

---

[١] البلاغة الصوتية : ٣٢، ٣٣.

[٢] تفسير القرطبي : ١٤٣/٢.

. عليه السلام . أنه سيكفيه من عانده ومن خالفه من المتولين، بمن يهديه من المؤمنين فأنجز له الوعد، وكان ذلك في قتل بني قينقاع وبني قريظة وإجلاء بني النضير... و(السميع) لقول كل قائل(العليم) بما ينفذه في عباده ويجريه عليهم) [1]

هذا هو السياق الذي جاءت فيه هذه الكلمة موضع البحث والنظر وهي :

(فسيكفيكهم)

وهي كما نرى قوية البناء ثقيلة على اللسان، فهي مكونة من تسعة أحرف متوالية، وهذا ما أورثها الثقل اللفظي. أما ثقلها المعنوي فلأنها تمثل وعد الله بالكفاية لنبيه . صلى الله عليه وسلم . شر أعدائه ومخالفيه وتلك كفاية غالبة قاهرة لا يقدر عليها إلا الله عز وجل هذه الكلمة سلاح بتار في وجوه المخالفين والمعاندين والصادين عن دعوته . صلى الله عليه وسلم . قوة المبنى إذا لم تكن إلا لقوة المعنى، إنها كفاية الله التي تقهر القوى وتهزم الجموع وتدمر العدة والعتاد. وتحقق النصر المؤزر لرسول الله . صلى الله عيه وسلم ـ ومن معه من المؤمنين.

يقول العلامة أبو السعود،مبينا هذه الكفاية التي تحملها هذه الكلمة : (ولما دل تنكير الشقاق على امتناع الوفاق وأن ذلك مما يؤدي إلى الجدال والقتال لا محالة، عقب ذلك بتسلية رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وتفريح المؤمنين بوعد النصر والغلبة، وضمان التأييد والإعزاز، وعبر بالسين الدالة على تحقق الوقوع البتة فقيل (فسيكفيكهم الله) أي سيكفيك شقاقهم، فإن الكفاية لا تتعلق بالأعيان بل بالأفعال وقد أنجز . عز وجل ـ وعده الكريم بقتل

---

[1] السابق : ١٤٣/٢.

بني قريظة وسبيهم وإجلاء بني النصير، وتلوين الخطاب بتجريده للنبي صلى الله عليه وسلم ـ مع أن ذلك كفاية منه سبحانه للكل لما أنه الأصل والعمدة في ذلك، وللإيذان بأن القيام بأمور الحروب وتحمل المؤن والمشاق ومقاساة الشدائد في مناهضة الأعداء من وظائف الرؤساء فنعمته تعالى في الكفاية والنصر في حقه عليه السلام أتم وأكمل. (١)

بهذا وضح العلامة أبو السعود هذه الكفاية وكيف كانت كفاية عظيمة كفاية شقاق هؤلاء المتربصين وهزيمتهم وهم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع، وكفاية هؤلاء هي الكفاية القوية الشديدة التي قوي لفظها لقوة معناها.

وأكتفى بهذه الشواهد لتكون دليلا على غيرها من قوة الفظ لقوة المعنى، بطول الكلمة وتتابع حروفها.

ومن ذلك في القرآن غير ما ذكرت : (سنستدرجهم) في قوله تعالى : (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين) (٢)

وقد جاءت هذه الكلمة ثقيلة اللفظ لكثرة حروفها وتواليها فهي مركبة من تسعة أحرف وهذه قوة لفظية تبدو عند النطق بها، أما قوتها المعنوية فواضحة في هذا السياق المتفجر بغضب الله على هؤلاء المكذبين بالقرآن، لتدل بطول لفظها على طول الاستدراج وإرخاء العنان لهم، وكيف أنه سيستدرجهم ويمدهم بالنعم، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذهم بغته، ولذلك قال بعدها (وأملى لهم إن كيدي متين)

---

(١) تفسير أبي السعود : ١٦٧/١، ١٦٨.

(٢) القلم : ٤٤، ٤٥.

ومنه : (فسينغضون) في قوله تعالى : (وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا)[1].

في هذا السياق المبين لإنكار المشركين للبعث بعد الموت جاءت هذه الكلمة (فسينغضون) بثقلها اللفظي وقوة بنائها الدالة على شدة الإنكار الذي استقر في قلوبهم وانعكس على وجوههم ويدافي حركاتهم، لان الانغاض تحريك الرأس إلى فوق وإلى أسفل، فهم يحركون رؤوسهم على سبيل التكذيب والاستيعاد[2]قوة اللفظ لقوة المعنى واضحة الدلالة في هذا السياق كما ترى إلى غير ذلك من الشواهد القرآنية.

---

(١) الإسراء : ٤٩ – ٥١.

(٢) يراجع التفسير الكبير للرازي : ٣٥٣/٢٠.

الخـاتمـة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من ختمت به الرسالات ، صاحب الحوض المورود واللواء المعقود والمقام المحمود ، وعلى آله وصحبه الغر الميامين .

وبعد ...

فأحسب أن هذه الدراسة فتحت نافذه نطل من خلالها على ميدان فسيح من الدراسة البلاغية التطبيقية ، أرشد إليها العلامة ابن جني منذ قرون عدة، ذلك بعبارته التى أشرنا إليها فى المقدمة مبوباً لهذا الميدان بقوله : (باب قوة اللفظ لقوة المعنى) .

ولم أعرف دراسة طبقت مقالته هذه على أي من النصوص العربية ، شعرها ونسرها على غزارة هذه النصوص وكثرة الدراسات الدائرة حول بلاغتها .

وهذه المحاولة التى لا تعدو أن تكون شمعة ، قد تهدي إلى ركن من أركان هذا الميدان ، وحسبها شرفاً ، أنها حاولت أن تكشف عن جانب من قوة اللفظ لقوة المعنى فى أفصح كلام وأبلغه ، كلام الله المعجز .

_ وقد دللت هذه الدراسة تدليلاً تطبيقياً على أن قوة اللفظ الناجمة عن البنية اللغوية والصوتية ، وتجاور حروفه على نسق خاص إنما كانت لقوة المعنى المعبر عنه بهذا اللفظ ، وأن هذه القوة هى أبرز مظاهر فصاحته في زاته ، وبلاغته فى سياقه ، وهذا يرد ردا صريحاً على ما

قالـه البلاغيـون المتـأخرون مـن أن قـوة اللفـظ وثقلـه تخـل بفصـاحته ، والقول بذلك فى القرآن مما يستعاذ بالله منه .

_ كما تبين أن دلالة قوة اللفظ لقوة المعنى تستمد من السياق الذى جاء فيه هذا اللفظ ، وأن هذه الكلمات لا تنفصل عن سياقها ولا تباين مقامها ، وأن هذه القوة التى استمدت دلالتها من السياق باب من أبواب الإعجاز البلاغى فى الكتاب العزيز .

_ وقد وضح لى أن هذا النوع من الدرس البلاغي زائـع ومنتشر فـي كـلام كثير من المفسرين فـي ثنايـا محـاولاتهم الكشـف عن قوة بعض الألفـاظ القرآنيـة ، وربـط القـوة اللفظيـة بـالقوة المعنويـة وبيـان الـدلالات البلاغيـة لذلك .

_ تهدي هذه الدراسة إلى دراسات غزيرة ومتنوعة بتنوع النصوص العربية شعرا ونثراً ، فـى محـاولات دائبـة وجـادة لتطبيـق ذلـك علـى كتـاب الله اولاً والسنة النبوية ثانياً وكلام السلف الصالح ثالثاً ، ثم سائر الكلام الفصيح شعره ونثره رابعاً ، والسير فـى هذا الطريـق كأنـه لا آخر لـه ، ممـا يحتـاج إلى توفر طائفة من طلاب العلم الجادين عليه .

_ كما تهدي هذه الدراسة إلى شقيقة لها تسير فى ذات المضمار وتضرب على أوتـار هذا النـغم ، تتنـاول عكس مـا تتناولـه هذه الدراسـة ، أعنـى : خفة اللفظ ورقته لخفة المعنـى ورقتـه ، كذلك فـى كل كـلام فصيح بليـغ ، وما أكثر ما يحفل به التراث العربى من نصوص ، وذلك الميدان المهجور من طلاب العلم النزال فيه قد يؤدي بنا إلى نتـائج مثمرة وجديـدة . هذ مـا

أرجو أن تهدي إليه هذه الصفحات القليلة ، سائلاً ربى إصلاح القلب الذي هو محل النية ، لنحظى بالمثوبة من الله عز وعلا . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله .

رمضان محمد عبد الغفار البدوي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بجامعة الأزهر

أهم المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم .

٢. إعراب القرآن للنحاس ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط الأولى ١٤٢١هـ .

٣. التحرير والتنوير لابن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٨٤م.

٤. تفسير أبي السعود ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، بدون تاريخ .

٥ـ تفسير البيضاوي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط الأولي ١٤١٧هـ ١٩٩٧م .

٦. تفسير الشعراوي ، الخواطر ، الناشر مطابع أخبار اليوم ١٩٩٧م .

٧. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) محمد رشيد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م .

٨ـ جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ، ت أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م .

٩. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ت أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ط الثانية ، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م .

١٠ـ حاشية الشهاب على البيضاوي ، دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧م

١١ـ حاشية محيي الدين شيخ زادة على البيضاوي ت محمد عبد القادر شاهين ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٩هـ ١٩٩٩م .

١٢. الخصائص لابن جني ، ت محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية بدون تاريخ .

١٣ـ خصائص التراكيب ، محمد أبو موسى ، ط الثانية ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م .

١٤ـ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ، ت أحمد محمد الخراط ، دار القلم دمشق ، بدون تاريخ .

١٥ـ روح المعاني للألوسي ، ت علي عبد الباري ، دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى .

١٦ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، للنيسابوري ، ت الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط الأولى ١٤١٦هـ .

١٧ـ في ظلال القرآن لسيد قطب ، دار الشروق بيروت ، ط السابعة عشرة ١٤١٢هـ .

١٨ـ الكشاف للزمخشري ، ط الثالثة ، ١٤٠٧هـ ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان .

١٩ـ لسان العرب لابن منظور ، دار صادر بيروت ، ط الثالثة ١٤١٤هـ .

٢٠ـ المحرر الوجيز ، لابن عطية ، ت عبدالسلام عبدالشافي محمد ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط الأولى ١٤٢٢هـ .

٢١ـ معاني القرآن وإعرابه وإعرابه للزجاج ، عالم الكتب بيروت ط الأولى١٤٠٢هـ١٩٨٨م

٢٢ـ معرفة الصحابة لأبي نعيم ، تحقيق عادل العزازي ، دار الوطن للنشر الرياض ، ط الأولى ، ١٤١٩هـ ـ .١٩٩٨

٢٣. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للرازي ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، ط الثالثة ١٤٢٠هـ .